أجاثا كريستي

شاهدة الادِّعاء

دار النجمة للنشر والتوزيع

شاهدة الادّعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

شاهدة الادّعاء

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

كان السيد كارتر، كبير موظفي مكتب السير ويلفريد روبرتس المحامي المعروف، يتصفح أوراق إحدى القضايا حين دق جرس الهاتف. فتناول السماعة، وعرف صوت المتكلم فهتف قائلاً: أهذا أنت يا تشارلز؟ كلا، إن السير ويلفريد في المحكمة ولم يعد بعد. نعم، إنه يدلي بدفاعه في قضية شاتلويرث. ماذا؟ من المستحيل أن تنتهي الجلسة بهذه السرعة مع وجود مايرز كممثل للاتهام، كلا، لا أعتقد أنك تستطيع مقابلته اليوم لارتباطه بمواعيد كثيرة ولكني أستطيع أن أحدد لك موعداً غداً. كلا، إنني أنتظر الآن قدوم السيد مايهيو في أية لحظة، إلى اللقاء.

ووضع السماعة وعاد إلى الأوراق التي كان يتفحصها. وما هي إلا لحظة حتى فتح الباب ودخلت جريتا، إحدى موظفات المكتب، وهي تصبغ أظافرها. كانت فتاة طويلة القامة شقراء الشعر شديدة الاعتداد بنفسها، وقالت دون أن تحول عينيها عن أناملها: هل أعد الشاي يا سيد كارتر؟

فنظر كارتر إلى ساعته وقال: لا، لم يحن الوقت بعد.

- بل لقد حان وفقاً لساعتي.

- لا بد أن ساعتك تحتاج إلى ضبط.

- لقد ضبطتها على ساعة الإذاعة.

- إذن فساعة الإذاعة تحتاج إلى ضبط.

فقلبت جريتا شفتيها وقالت: كلا يا سيد كارتر، إن ساعة الإذاعة لا تخطئ أبداً.

فقال كارتر وهو يشير إلى ساعته: هل ترين هذه الساعة؟ لقد ورثتها عن أبي ولم يحدث يوماً أنها قدّمت أو أخّرت جزءاً من الثانية. إنهم لا يصنعون ساعات جيدة في هذه الأيام.

ومد يده وتناول ورقة، وما كاد يتلو بضعة سطور فيها حتى قطب حاجبيه وقال: طبعاً أنت التي كتبت هذه الورقة على الآلة الكاتبة، لقد أغفلت كلمة.

- كلمة واحدة فقط؟ إن إغفال كلمة واحدة ليس أمراً خطيراً.

- الكلمة التي أغفلتها هي كلمة «لا»، وإغفالها يغير المعنى تماماً.

- أحقاً؟ إن الإنسان لا يتمالك من أن يضحك كلما فكر في أي كلمة من حرفين يمكن أن تغير رسالة طويلة كهذه الرسالة.

وضحكت فقال كارتر في استياء: ليس ثمة ما يبعث على الضحك.

ثم مزق الرسالة واستطرد قائلاً: اكتبيها مرة أخرى. هل تذكرين ما رويته لك في الأسبوع الماضي عن قضية بريانت المشهورة؟ قضية الوصية التي حدث تحريف في إحدى كلماتها فآل الميراث إلى من لا يستحقه؟

- نعم، أذكر. لقد آل الميراث إلى الزوجة المطلّقة.

- كانت هذه الزوجة قد طُلقت منذ خمسة عشر عاماً، وقد قال القاضي نفسه إن تنفيذ الوصية جرى على نحو يخالف تماماً رغبة المورِّث ولكن لم يكن في الاستطاعة عمل شيء، وكل ذلك بسبب هفوة صدرت من كاتب صغير عن غير عمد.

فقالت جريتا وهي تضحك: ألا ترى في ذلك ما يبعث على الضحك؟

فرمقها بعينه في هدوء وقال: إن مكاتب المحامين ليست مكاناً للضحك والهذر يا آنسة جريتا، ثم إن القانون شيء خطير يجب أن ينظر إليه الناس على هذا الاعتبار.

فهزت جريتا كتفها وقالت: لا يقول بذلك أيّ إنسان يسمع النكات التي يطلقها القضاة خلال نظر القضايا.

- إن إطلاق النكات في المحكمة امتياز خاص بالقضاة لا يشاركهم فيه أحد.

قالت الفتاة: إنني أقرأ مما تنشره الصحف تحت عنوان «ضحكات في المحكمة».

- إذا ضحك الحضور لسبب آخر غير إحدى ملاحظات القاضي جاز للقاضي أن يهدد بإخلاء قاعة الجلسة.

- يا لها من تقاليد سخيفة بالية!

ثم دارت على عقبيها فجأة وواجهته قائلة: هل تعرف ماذا قرأت منذ بضعة أيام يا سيد كارتر؟ قرأت عبارة تقول إن القانون حمار.

فأجابها كارتر ببرود: إنها عبارة سخيفة لا تعني شيئاً. ثم نظر إلى ساعته وقال: في استطاعتك أن تعدّي الشاي الآن يا آنسة جريتا.

فقالت بصوت ينم عن الارتياح: شكراً لك يا سيد كارتر.

وأسرعت نحو الباب فقال كارتر: سيحضر السيد مايهيو المحامي بعد قليل، ونحن ننتظر كذلك شخصاً يدعى ليونارد فول، وربما يحضر الاثنان معاً.

صاحت جريتا في لهفة وانفعال: ليونارد فول؟ ألم تنشر الصحف مؤخراً هذا الاسم؟

فقال لها كارتر زاجراً: الشاي يا جريتا.

فقالت دون أن تبرح مكانها: أذكر أنه قد طُلب من صاحب هذا الاسم الاتصال بالشرطة لعله يستطيع أن يدلي

إليهم بمعلومات تفيدهم في...

فقاطعها قائلاً بصوت مرتفع: الشاي.

- حسناً يا سيد كارتر.

وانصرفت على كره منها بينما راح كارتر يرتب أوراقاً أمامه ويتمتم: عجباً لهؤلاء الفتيات، تثيرهن أتفه الأنباء وأبعدها عن الحقيقة!

وتناول ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة وقرأها بسرعة وهز رأسه في استياء ثم أجرى تصحيحاً في إحدى الكلمات، وقبل أن يضع القلم دخلت جريتا معلنة قدوم السيد مايهيو.

كان مايهيو يناهز الأربعين وقد عُرف بين زملائه المحامين بالذكاء والدقة والإيجاز، وجاء معه ليونارد فول، وهو شاب وسيم في نحو السابعة والعشرين من عمره له وجه سمح وعينان صافيتان باسمتان.

وقدّم مايهيو قبعته إلى جريتا وهو يقول: اجلس يا سيد فول. ثم التفت إلى كارتر وقال: طاب يومك يا كارتر.

وتناولت جريتا قبعتي مايهيو وليونارد فول ووضعتهما على المشجب، ثم سارت نحو الباب دون أن تحول عينيها عن ليونارد.

قال كارتر: طاب يومك يا سيد مايهيو، إن السير ويلفريد لن يبطئ كثيراً وإن كان من المتعذر التنبؤ بشيء عن موعد انتهاء الجلسات التي يرأسها القاضي بانتر، سأذهب

إليه الآن لأنبئه بقدومك أنت والسيد.

ونظر نحو ليونارد متردداً فقال مايهيو: السيد ليونارد فول. شكراً لك يا كارتر، يؤسفني أنني فاجأت السير ويلفريد بتحديد هذا الموعد العاجل، ولكن الإسراع في ظروفنا له أهمية قصوى.

وانصرف كارتر مسرعاً وتهالك مايهيو على أحد المقاعد بينما راح ليونارد يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، فقال له مايهيو: اجلس يا سيد فول.

- شكراً لك يا سيدي ولكني أؤثر الحركة، إن الإنسان في مثل هذه الظروف لا يتمالك من الإحساس بتوتر الأعصاب.

- هذا صحيح.

ودخلت جريتا وقالت تحدث مايهيو وهي تنظر إلى ليونارد باهتمام وعطف: هل لك في كوب من الشاي يا سيد مايهيو؟ لقد أعددته في التو واللحظة.

فقال ليونارد: أنا شخصياً لا مانع لدي...

ولكن مايهيو قاطعه قائلاً بحزم: كلا، شكراً لك.

وهز ليونارد كتفه ونظر إلى جريتا وابتسم، فابتسمت الفتاة بدورها. وواصل الشاب سيره في الغرفة ثم وقف فجأة وقال وعلى وجهه دلائل الحيرة: أنا لا أصدق أن هذا حدث لي وأكاد أعتقد أنه مجرد حلم سوف أستيقظ منه وينتهي كل شيء.

- طبيعي أن يكون هذا شعورك.

- أعني، أوه... إن الأمر يبدو في منتهى السخف.

فقال مايهيو بحدة: أتقول منتهى السخف يا سيد فول؟

- نعم، فقد كنت دائماً إنساناً وديعاً أحب الناس وآنس إليهم، ولست أبداً من أولئك الأشخاص الذين يقدمون على... على عملٍ من أعمال العنف.

وسكت لحظة ثم استطرد قائلاً: ولكني أظن أن الأمر سينتهي بسلام، أليس كذلك؟ أعني أن الإنسان في هذه البلاد لا يمكن أن يدان بجريمة لم يرتكبها، ألا ترى ذلك يا سيد مايهيو؟

- إن نظامنا القضائي فيما أعتقد هو خير الأنظمة في العالم كله.

ويبدو أن هذه العبارة لم تطمئن ليونارد كما ينبغي، فقد قال وهو لا يزال مقطب الجبين: صحيح أنه كانت هناك قضية الشخص المدعو... ماذا كان اسمه؟ آه، الشخص المدعو أدولف بيك. لقد قرأت عنها منذ أيام قلائل، بعد أن قضى هذا الرجل في السجن بضعة أعوام ظهر أن الجريمة التي دخل السجن بسببها قد ارتكبها رجل آخر فمنحوه عفواً، أليس عجيباً أن يُمنح إنسان العفو عن جريمة لم يرتكبها؟

- هذا إجراء قانوني معروف.

- أنا لا أرى ذلك عدلاً.

- المهم أن أدولف بيك قد أطلق سراحه.

فقال ليونارد بحدة: هذا حقه، ولكن هب أن الجريمة التي اتُّهم بارتكابها كانت جريمة قتل وأنه شُنق، أفلا يكون العفو قد جاء بعد فوات الوقت؟

فقال مايهيو بشيء من الجفاء: أصغِ إليّ يا سيد فول، أعتقد أنه لا ضرورة لهذا التشاؤم.

- أنا آسف يا سيدي، ولكن من كان في مثل موقفي لا بد أن يشعر بالقلق.

- حاول أن تحتفظ بهدوئك. سيحضر السير ويلفريد روبرتس بعد قليل وأريدك أن تروي له قصتك كما رويتها لي.

- سأفعل يا سيدي.

- وإلى أن يحضر السير ويلفريد دعنا نناقش التفصيلات. هل أنت بلا عمل في الوقت الحاضر؟

فقال ليونارد بشيء من الارتباك: نعم، ولكني ادخرت بعض النقود. إنه ليس مبلغاً كبيراً ولكنه قد يساعدك على...

فقاطعه مايهيو: أنا لا أفكر في المصاريف القضائية وإنما أريد فقط استيضاح بعض الأمور لتكتمل لدي صورة صحيحة عن بيئتك وظروفك. منذ متى تعطلت عن العمل؟

- منذ نحو شهرين. وقد كنت أعمل ميكانيكياً في إحدى شركات إصلاح السيارات.

كان يجيب على جميع الأسئلة بلا تردد وبسهولة ويسر، فسأله مايهيو: ما هي المدة التي عملتها في هذه الشركة؟

- نحو ثلاثة شهور.

فقال مايهيو بحدة: وهل فصلت؟

- كلا، بل تركت العمل مختاراً. لقد شبّ خلاف بيني وبين رئيس العمال، وهو إنسان وضيع يحب التحرش بمرؤوسيه.

- وقبل ذلك؟

- قبل ذلك كنت أعمل في محطة للبنزين، ولكني تعرضت لبعض الحرج فتركتها.

- تعرضت لبعض الحرج؟ ماذا تعني؟

أجاب ليونارد بشيء من الارتباك: كان لصاحب المحطة ابنة وحيدة، ويبدو... ماذا أقول؟ يبدو أنها قد شُغفت بي، ولكن لم يحدث بيننا شيء على الإطلاق، غير أن أباها ضاق ذرعاً وقال لي إنه من الأفضل أن أرحل. كان رجلاً لطيفاً وقد قال لي ذلك بلباقة وأعطاني شهادة امتدح فيها عملي وسلوكي.

قال ذلك ثم نهض واقفاً واستطرد قائلاً: وقبل ذلك كنت أبيع نوعاً من مضارب البيض بالعمولة.

- أحقاً؟

- كانت مهنة قذرة، وكان في مقدوري أن أبتكر نوعاً من المضارب خيراً منه.

ولمح وجه مايهيو وأدرك ما يجول بخاطره فاستطرد قائلاً: أتظن أنني من أولئك الذين لا يستقرون في عمل يا سيدي؟ هذا صحيح إلى حد ما، ولكني لست كذلك في الواقع. إن خدمتي في الجيش وإقامتي في الخارج قد أورثاني نوعاً من القلق، لقد أقمت في ألمانيا، وهناك عرفت زوجتي وكانت تعمل ممثلة، ومنذ عودتي إلى إنجلترا لم أجد عملاً مناسباً أستقر فيه، بل ولم أعرف على وجه التحديد ماذا أريد أن أفعل. إنني أحب العمل في السيارات وفي استنباط أجهزة لها، ولكن...

وقبل أن يتم عبارته فُتح الباب ودخل السير ويلفريد و كارتر في إثره.

* * *

الفصل الثاني

كان السير ويلفريد روبرتس رجلاً متوسط القامة مليء الجسم حليق الوجه يتألق في عينيه الصغيرتين بريق الذكاء، وكان لا يزال يرتدي الروب والشعر المستعار، فهتف حينما دخل: مرحباً جون.

فنهض مايهيو واقفاً وقال: مرحباً ويلفريد.

قال السير ويلفريد وهو يخلع الروب والشعر المستعار ويدفع بهما إلى كارتر: كنت في المحكمة، والواقع أن القاضي بانتر قد تفوّق على نفسه اليوم في الإسهاب والإفاضة. هل هذا السيد... السيد فول؟

فقال مايهيو: نعم، السيد ليونارد فول.

وقال ليونارد باحترام: طاب يومك يا سيدي.

- طاب يومك يا فول، تفضل بالجلوس.

ثم التفت إلى مايهيو واستطرد قائلاً: كيف حال الأسرة يا جون؟

فأجاب مايهيو: مولي أصيبت بتلك الأنفلونزا العينة.

- هذا أمر يؤسف له.

- هل ربحت قضيتك يا ويلفريد؟

- يسرني أن أقول إنني قد ربحتها.

- أنت دائماً تجد متعة خاصة في الانتصار على مايرز ممثل الاتهام، أليس كذلك؟

- إنني أجد متعة في الانتصار على أي إنسان.

- ومايرز بصفة خاصة؟

فقال السير ويلفريد وهو يصلح هندامه أمام مرآة صغيرة على الجدار: نعم، ومايرز بصفة خاصة. إنه إنسان لا يطاق ويحاول دائماً أن يضايقني ويثيرني.

- هذه ظاهرة متبادلة بينكما، أنت أيضاً تضايقه بحرصك على مقاطعته وإصرارك على منعه من إتمام كلامه.

فقال السير ويلفريد: إنه يضايقني بهذه الحركة المصطنعة التي أصبحت من مميزاته.

قال ذلك وسعل، ثم مد يده يصلح شعره المستعار مقلداً بذلك مايرز. واستطرد قائلاً: إن هذه الحركة تشتت أفكاري، كما أنه تعود أن ينطق باسمي على مقطعين: رو-بَرتس. ولكنه محام قدير جداً لا يؤخذ عليه إلا أنه يلقي أهم أسئلته وأخطرها في غير موعدها. ولكن دعنا منه ولنتحدث في العمل.

قال مايهيو: نعم، لنتحدث في العمل. لقد أحضرت فول معي لأنني يهمني أن تسمع قصته كما رواها لي.

قال ذلك ومد يده إلى حقيبته التي كان قد وضعها على المكتب وأخرج منها أوراقاً مكتوبة على الآلة الكاتبة قدمها إلى السير ويلفريد وهو يقول: إن موضوع السيد فول عاجل كما يبدو لي.

فقال ليونارد وعلى وجهه دلائل الحيرة والحرج: تقول زوجتي إنهم سوف يلقون القبض عليّ، وهي أذكى مني كثيراً، ولذلك أخشى أن تكون على صواب.

- يلقون القبض عليك؟ لماذا؟

قال ليونارد وقد اشتد ارتباكه: بتهمة القتل.

فجلس السير ويلفريد على طرف المكتب بينما قال مايهيو موضحاً: إن الموضوع خاص بحادث الآنسة إميلي فرنش، ألم تقرأ عنه في الصحف؟

أومأ السير ويلفريد برأسه علامة الإيجاب ومضى مايهيو يقول موضحاً: كانت الآنسة إميلي فرنش عانساً وتعيش وحدها مع خادمة عجوز في بيت بحي هامستيد، ثم حدث في ليلة ١٤ أكتوبر أن عادت الخادمة إلى البيت في الساعة الحادية عشرة فوجدت أن هناك من اقتحم البيت وضرب سيدتها على مؤخر رأسها فقتلها، أليس كذلك يا سيد فول؟

- بلى، وهو حادث أصبح مألوفاً جداً في هذه الأيام.

ومنذ بضعة أسابيع نشرت الصحف أن الشرطة تود مقابلة شخص يدعى ليونارد فول كان في زيارة الآنسة إميلي فرنش في ليلة الحادث، إذ يُظن أنه ربما كانت لديه معلومات تفيد التحقيق. وذهبت إلى مركز الشرطة بطبيعة الحال، وهناك ألقوا عليّ طائفة من الأسئلة.

صاح السير ويلفريد بحدة: هل حذروك قبل أن يلقوا عليك هذه الأسئلة؟

فأجاب ليونارد في حيرة: لا أعلم تماماً، سألوني عما إذا كنت أريد الإدلاء باعتراف يسجلونه ويقدمونه في المحكمة كدليل، فهل ذلك هو التحذير الذي تعنيه؟

فتبادل السير ويلفريد ومايهيو نظرة ذات معنى، وهز الأول رأسه ببطء وغمغم قائلاً: لا مفر الآن.

قال ليونارد: مهما يكن فقد خيل إليّ وقتئذٍ أن كلامهم لا معنى له، وأدليت إليهم بكل ما لدي من معلومات، فأصغوا إليّ في أدب وخيل إليّ أنهم اقتنعوا وأن الأمر انتهى عند ذلك الحد. ولكني ما كدت أعود إلى البيت وأروي لرومين، زوجتي، ما حدث حتى استولى عليها القلق، وخيل إليّ أنها تعتقد أن الشرطة ترتاب في أنني القاتل.

وكان السير ويلفريد يصغي باهتمام، فلما وصل ليونارد بقصته إلى هذا الحد نهض من مكانه على حافة المكتب وجلس على أحد المقاعد وقال يحدث الشاب: أكمل قصتك.

فقال ليونارد: عندئذ رأيت أنه ربما كان من الأفضل أن

أتصل بأحد رجال القانون، فذهبت إلى السيد مايهيو وجاء بي إلى هنا لعلك ترشدني إلى ما يجب عليّ عمله.

نهض السير ويلفريد من مقعده وراح يذرع الغرفة وهو مطرق برأسه، ثم وقف أمام ليونارد فول وسأله: هل كنت تعرف الآنسة إميلي فرنش جيداً؟

وأراد ليونارد أن ينهض ولكن سير ويلفريد أشار إليه أن يظل جالساً. قال الشاب: نعم، كانت لطيفة معي، وكان لطفها المفرط يضايقني في بعض الأحيان. وقد استولى عليّ جزع شديد عندما قرأت في الصحف نبأ مصرعها، فقد كنت أحترمها وأحبها حقاً.

فقال مايهيو محدثاً الشاب: ارو للسير ويلفريد -كما رويت لي- كيف تعرفت على الآنسة إميلي فرنش.

فتحول ليونارد إلى السير ولفريد وقال: في أحد الأيام كنت أسير بشارع أكسفورد، فرأيت سيدة متقدمة في السن تعبر الطريق حاملة كمية من اللفائف والحزم. وما أن توسطت الطريق حتى سقطت منها اللفائف، فحاولت أن تلتقطها ولكنها فوجئت بسيارة توشك أن تدهمها، فهرولت إلى الرصيف بسرعة ونجت بنفسها في آخر لحظة. وكنت قد رأيت ما حدث فجمعت اللفائف التي كانت تبعثرت في الطريق ونظفت بعضها مما علق بها من أوحال وأعدت ربط حزمة تمزق رباطها، وعملت على طمأنة السيدة والترفيه عنها. وأنت تعرف ما يفعله الناس في مثل هذه الحالة.

- وهل شكرتك على صنيعك؟

- نعم، نعم، شكرتني.

- كما لو كنت أنقذت حياتها؟

- لا.

فقال السير ويلفريد وهو يشعل لفافة التبغ: ولكنك في الواقع لم تنقذ حياتها؟

- نعم، لم يكن ما فعلته عملاً من أعمال البطولة، ولم أتوقع قط أن أراها مرة أخرى.

- هل لك في لفافة تبغ؟

- كلا، شكراً لك يا سيدي، أنا لا أدخن. ثم حدث بمحض الصدفة بعد يومين أن وجدت نفسي جالساً خلفها في أحد المسارح، ونظرت السيدة حولها ورأتني وبدأنا نتحدث، وفي النهاية دعتني لزيارتها.

فسأله السيد ويلفريد: وهل ذهبت لزيارتها؟

- نعم، لقد طلبت مني بإلحاح أن أحدد موعداً للزيارة، وكان من الغلظة والقسوة أن أرفض. وهكذا حددت لها يوم السبت التالي موعداً للزيارة.

قال السير ويلفريد وهو ينظر إلى الأوراق التي بين يديه: وهكذا ذهبت إلى بيتها في...

قال مايهيو متمماً: في هامستيد.

فقال ليونارد: نعم.

سأله السير ويلفريد: وماذا علمت عنها عندما زرت بيتها لأول مرة؟

- لا شيء أكثر مما ذكرته لي من أنها تعيش وحدها وأن أصدقاءها قليلون، وكلاماً بهذا المعنى.

- هل كانت تعيش وحدها مع مدبرة البيت؟

- نعم، وكان لديها ثماني قطط. كان الأثاث فخماً وجميلاً ولكن تفوح منه رائحة القطط.

- هل كان لديك من الأسباب ما يحملك على الاعتقاد بأنها واسعة الثراء؟

- كان حديثها يدل على أنها غنية.

- وأنت؟

فأجاب الشاب في استهزاء: أنا مفلس تماماً، ومنذ وقت طويل.

- هذا من سوء الحظ.

- نعم، هذا من سوء الحظ. آه، هل تعني أن الناس سيعتقدون أنني كنت أبتز مالها؟

- كنت أريد أن أقول لك ذلك بعبارة مهذبة. نعم، سوف يعتقد الناس ذلك.

- ولكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. الواقع أنني كنت أرثي لها لأنها وحيدة، ولما كنت قد نشأت في بيت عمتي العجوز بيسي فإنني أحب السيدات العجائز.

- تقول السيدات العجائز؟ كم كان عمر إميلي فرنش؟

- لا أعلم، ولكني قرأت في الصحف بعد مصرعها أنها كانت في السادسة والخمسين.

- السادسة والخمسين؟! لا أظن أن إميلي فرنش كانت تعد نفسها عجوزاً.

- ولكنك لا تستطيع أن تصفها بأنها شابة، أليس كذلك؟

- لنمض في الموضوع. هل كنت تزورها كثيراً؟

- نعم، بمعدل مرة أو مرتين في الأسبوع.

- هل كنت تصطحب زوجتك في هذه الزيارات؟

ارتبك ليونارد قليلاً وأجاب: لا، لم أكن أصطحبها.

- لماذا؟

- بصراحة، كنت أخشى إذا اصطحبتها ألا تستقيم الأمور.

- مع زوجتك أو مع إميلي فرنش؟

- مع إميلي فرنش.

وبدا عليه التردد فقال له مايهيو مشجعاً: تكلم، تكلم.

قال ليونارد: لقد خيل إليّ أنها شُغفت بي.

فقال السير ويلفريد: أتعني أنها تورطت في حبك؟

صاح ليونارد مرتاعاً: يا إلهي! كلا، لم يكن هناك شيء

من ذلك. كل ما في الأمر أنها كانت تحنو عليّ وتدللني.

فصمت السير ويلفريد لحظة ثم قال: أصغِ إليّ يا سيد فول. أعتقد أن من أسباب ارتياب الشرطة فيَ أمرك (إذا كان هناك ارتياب، وهو ما لم يقم عليه دليل حتى الآن) أنهم لا بد قد تساءلوا: لماذا وأنت شاب وسيم ومتزوج قد كرست الكثير من وقتك لسيدة عجوز لا تجمع بينك وبينها أية صفة مشتركة؟

فأجاب ليونارد وقد غشت وجهه سحابة مظلمة: نعم، أعلم أنهم سيقولون أنني كنت طامعاً في مالها... وذلك صحيح إلى حد ما.

- أنا معجب بصراحتك يا سيد فول. هل تستطيع أن تكون أكثر وضوحاً؟

نهض ليونارد وسار إلى المدفأة ووقف أمامها، ثم قال بعد صمت قصير: حسناً، إنها لم تُخفِ أنها واسعة الثراء، وقد كنت أنا وزوجتي رومين نعاني بعض الضيق الشديد كما سبق أن ذكرت. ولذلك كنت أرجو إذا ازدادت أمورنا تأزماً أن تبادر إلى إقراضي بعض النقود... هذه هي الحقيقة بكل أمانة وصراحة.

- هل طلبت منها قرضاً؟

- كلا، لم أطلب لأن أمورنا لم تتأزم أكثر من المعتاد.

قال ذلك وقطب حاجبيه فجأة كما لو كان قد أدرك

خطورة موقفه، ثم قال وهو يتهالك على أحد المقاعد: الآن أستطيع أن أرى أن موقفي سيئ للغاية.

- هل كانت إميلي فرنش تعلم أنك متزوج؟

- نعم.

- وهل اقترحت أن تصطحب زوجتك في زيارتك لها؟

- لا، ويبدو أنها فهمت أنني وزوجتي لسنا على وفاق.

- هل تعمدت أن توحي إليها بهذا الانطباع؟

- كلا، لم أتعمد ذلك، ولكن يبدو أنها استنتجته. وقد خطر لي من ناحيتي أنني إذا صحبت رومين معي كلما ذهبت لزيارتها فإن اهتمامها بي ربما يفتر. أنا لم أضمر قط استغلالها، وكنت قد ابتكرت جهازاً مفيداً للسيارات ففكرت في أنني ربما استطعت إقناعها بتمويل ابتكار هذا الجهاز، حيث إنها سوف تحقق ربحاً وفيراً من استثمار أموالها في المشروع. إنني عاجز عن إيضاح الأمر كما ينبغي ولكني أؤكد لك يا سير ويلفريد أنني لم أفكر قط في ابتزاز أموالها.

- ما قيمة المبالغ التي حصلت عليها من إميلي فرنش؟

- لا شيء، لا شيء أبداً.

- حدثني عن مدبرة البيت.

- جانيت ماكنزي؟ إنها عجوز مستبدة كثيراً ما ضايقت الآنسة إميلي. صحيح أنها كانت تعنى بها كل العناية ولكن

العجوز المسكينة لم تكن تتمتع بحريتها أثناء وجودها.

وصمت وشرد ذهنه، ثم استطرد قائلاً بعد لحظة: جانيت لم تكن تحبني.

- ولماذا لم تكن تحبك؟

- بسبب الغيرة فيما أعتقد. لم تكن تريدني أن أساعد الآنسة فرنش في أعمالها.

- وهل كنت تساعد الآنسة فرنش في أعمالها؟

- نعم. كانت قلقة بشأن بعض استثماراتها وكانت تجد صعوبة في إعداد البيانات المصرفية، فعاونتها في هذه الأمور وغيرها.

قال السير ويلفريد: أصغِ إليّ يا سيد فول. سألقي عليك الآن سؤالاً على جانب عظَيم من الأهمية والخطورة، إنه سؤال حيوي أرجو أن أتلقى عنه إجابة صادقة. أنت كنت في ضيق مالي وكنت تدير شؤون هذه السيدة، فهل حدث يوماً أنك أخذت لنفسك شيئاً من الأموال التي كنت تشرف على استثمارها؟

احمرّ وجه ليونارد وهم بأن يرد بحدة، ولكن السير ويلفريد أسكته بقوله: اصبر لحظة وفكر جيداً قبل أن تجيب يا سيد فول، ذلك لأن هناك وجهات نظر. فأنت إما نزيه كل النزاهة، وفي هذه الحالة يحق لنا أن نشيد بأمانتك وأن نتخذها دليلاً على براءتك، وإما أن تكون قد اختلست بعض أموال السيدة بطريقة ما، وحينئذٍ يكون دافعنا أنه ليس ثمة

ما يدعو لارتكاب جريمة القتل طالما أن السيدة التي قُتلت كانت بالنسبة إليك مصدر إيراد لا ينضب. ومن هذا ترى أن بوسعنا الإفادة من كلتا الحالتين. ولكن ما أريده هو الصدق، فخذ من الوقت ما شئت قبل أن تجيب.

- أؤكد لك يا سيدي أنني كنت أميناً كل الأمانة ولم أقدم على أية فعلة تشينني.

- أشكرك يا سيد فول، فقد أرحت ضميري. لقد كنت واثقاً من أنك من الذكاء بحيث لا يمكن أن تكذب في موضوع حيوي كهذا. ولآن لنتحدث عن ليلة ١٤ أكتوبر، فهل طلبت إليك الآنسة فرنش أن تزورها في تلك الليلة؟

- كلا، ولكن خطر لي أن أحدثها عن الجهاز الذي ابتكرته فذهبت إليها، ووصلت إلى بيتها في نحو الساعة الثامنة إلا ربعاً، وكنت أعلم أن جانيت ماكنزي في إجازة وأن الآنسة فرنش وحدها وأنها ربما تشعر بالوحدة.

- كانت جانيت ماكنزي في إجازة تلك الليلة وكنت أنت تعرف هذه الحقيقة؟

- نعم، كنت أعلم أن جانيت تحصل على إجازتها عادة في أيام الجمعة.

- إن ذلك ليس في مصلحتك.

- لماذا؟ كان من الطبيعي جداً أن يقع اختياري على ذلك اليوم بالذات لزيارتها.

- تكلم يا سيد فول، امضِ في قصتك.

- ذهبت إليها إذن ووصلت إلى بيتها نحو الساعة الثامنة إلا ربعاً، وكانت قد فرغت من تناول طعام العشاء فتناولت معها كوباً من القهوة، ثم لعبنا الورق وودعتها في الساعة التاسعة وعدت إلى منزلي.

- لقد قلت لي إن جانيت ماكنزي عادت إلى بيت مخدومتها في تلك الليلة في وقت مبكر خلافاً للعادة.

- نعم يا سيدي، فقد ذكر لي رجال الشرطة أنها عادت إلى البيت لتأخذ شيئاً نسيته وأنها سمعت شخصاً يتحدث إلى الآنسة فرنش. فمهما يكن من أمر هذا الشخص فإنني لست هو.

- هل تستطيع إثبات ذلك يا سيد فول؟

هتف ليونارد: طبعاً أستطيع، فقد كنت وقتئذٍ في بيتي ومع زوجتي. وقد سألني رجال الشرطة مراراً أين كنت في الساعة التاسعة والنصف، والإنسان يتفق له في بعض الأحيان ألا يتذكر أين كان في وقت ما، ولكني أذكر أنني عدت مباشرة إلى بيتي وإلى زوجتي رومين ولم نخرج بعد ذلك.

فأطرق سير ويلفريد برأسه قليلاً ثم سأل: هل تقيمان في شقة؟

- نعم، أقيم أنا وزوجتي في شقة صغيرة فوق حانوت خلف محطة إيستون.

- هل رآك أحد عندما عدت إلى الشقة؟

- لا أظن ذلك، لماذا؟

- من مصلحتك أن يكون هناك من رآك.

فهتف ليونارد: لا شك أنك لا تظن... أعني إذا كانت الآنسة فرنش قد قُتلت حقاً في الساعة الثامنة والنصف فإن شهادة زوجتي فيها الكفاية بالنسبة إليّ، أليس كذلك؟

نظر كل من السير ويلفريد ومايهيو إلى الآخر، ثم قال مايهيو: وهل أنت واثق من أن زوجتك ستشهد بأنك كنت في البيت في ذلك الوقت؟

فقال ليونارد باطمئنان وثقة: طبعاً ستشهد.

قال مايهيو: هل تحب زوجتك كثيراً، وهل تحبك زوجتك؟

فانبسطت أسارير وجه ليونارد وأجاب: رومين تحبني وتخلص لي كل الإخلاص، إنها أوفى زوجة في الوجود.

فقال مايهيو: آه، أرى أنكما سعيدان في حياتكما الزوجية.

- لا يمكن أن نكون أسعد مما نحن عليه. إن رومين مخلوقة رائعة بكل معنى الكلمة، وإنه ليسرني أن تعرفها يا سيد مايهيو.

* * *

الفصل الثالث

دق باب غرفة المكتب فصاح السير ويلفريد: ادخل.

ودخلت جريتا وهي تقول: صحيفة المساء يا سير ويلفريد.

وقدمت إليه الصحيفة وأشارت إلى فقرة فيها وهي تفعل ذلك، فقال السيد ويلفريد: شكراً لك يا جريتا.

- هل تريد كوباً من الشاي يا سيدي؟

- كلا، شكراً لك. هل لك في شيء منه يا سيد فول؟

- كلا، أشكرك.

دارت جريتا على عقبيها وانصرفت، ونظر مايهيو إلى ليونارد وقال: أظن أنه يحسن بنا أن نلتقي بزوجتك.

فقال ليونارد وفي صوته رنة سخرية: هل تعني أننا يجب أن نجتمع كلنا حول مائدة مستديرة على شكل مؤتمر؟

- إنني أتساءل يا سيد فول، ترى هل تنظر إلى الموضوع

النظرة الجدية التي يستحقها؟

- طبعاً، طبعاً. ولكن الموضوع يبدو لي في بعض الأحيان أشبه بحلم مزعج، فلا أكاد أصدق أنه حدث لي. إن الإنسان يقرأ عن جرائم القتل في الكتب أو الصحف ولكنه لا يصدق أبداً أنه يمكن أن يتهم في إحداها أو أن تكون له صلة بها من قريب أو بعيد، ولعل هذا هو السبب في أنني أحاول أن أجعل منها مادة للضحك والفكاهة بينما هي في الواقع ليست مما يبعث على الضحك.

- نعم، الواقع أنها ليست مما يبعث على الضحك.

- ولكن موقفي سليم، ألا ترى ذلك يا سيد مايهيو؟ لأنهم إذا كانوا يعتقدون أن الآنسة فرنش قد قُتلت في الساعة التاسعة والنصف فإنني كنت في ذلك الوقت في بيتي مع رومين.

- كيف ذهبت إلى بيتك؟ بالحافلة أم بالمترو؟

- بل سيراً على قدمي. وقد استغرق ذلك نحو خمس وعشرين دقيقة، وكان الجو جميلاً ما عدا رياح خفيفة.

- هل قابلت أحداً تعرفه في الطريق؟

- كلا. ولكن ما أهمية ذلك؟ إن رومين...

فقاطعه السير ويلفريد قائلاً: إن شهادة الزوجة الوفية المخلصة لن تكون مقنعة إلا إذا دعمتها شهادة شخص آخر يا سيد فول.

- أتعني أنهم قد يعتقدون أن رومين تكذب من أجلي؟

ففكر المحامي قليلاً ثم قال: هناك سوابق كثيرة بهذا المعنى يا سيد فول.

- أنا أعرف بأن رومين قد تكذب من أجلي ولكن ليس في قضية كهذه، ألا تصدق أنت يا سيدي أن كل ما قلته لك صحيح؟

فأجاب السير ويلفريد: أنا أصدقك يا سيد فول، ولكني لست الشخص الذي يجب عليك أن تقنعه. هل تعرف أن الآنسة إميلي فرنش قد تركت وصية أوصت لك فيها بكل ثروتها؟

فدُهش ليونارد وألجمته الدهشة لحظة ثم صاح: تركت لي كل ثروتها؟ لا بد أنك تهزل!

- كلا يا بني، إنني لا أهزل. لقد نُشر النبأ في صحف المساء.

تناول ليونارد الصحيفة من يد السير ويلفريد وجرى ببصره على عناوينها، وأشار المحامي الكبير إلى مكان في الصحيفة فقرأ ليونارد النبأ وهتف: إنني لا أصدق.

- ألم تكن تعلم شيئاً عن هذه الوصية؟

أجاب ليونارد وهو يقدم الصحيفة إلى مايهيو: كلا، لم أكن أعلم شيئاً على الإطلاق. إنها لم تشر إليها بكلمة واحدة.

فسأله مايهيو: هل أنت واثق من ذلك يا سيد فول؟

- كل الوثوق. أنا شاكر لها ولكنني -في هذه الظروف- أتمنى لو أنها لم توصِ لي بشيء... أعني أن الوصية ستزيد موقفي حرجاً، أليس كذلك يا سيدي؟

قال السير ويلفريد: إنها تعد حافزاً لارتكاب الجريمة، ذلك إذا كنت قد علمت بأمرها. ولكنك تقول إنك لا تعلم عنها شيئاً. ألم تحدثك الآنسة فرنش قط عن رغبتها في كتابة وصية؟

- سمعتها مرة تقول لجانيت: "إنك تخشين أن أعيد كتابة وصيتي"، ولم يكن لي شأن بالحوار الذي حمل الآنسة فرنش على التفوه بهذه العبارة، ظننت أنه ربما كان بينهما خلاف لا أعرفه.

ثم بدا عليه الاضطراب فجأة وسأل: هل تظن حقاً أنهم سيقبضون عليّ؟

- ربما، ويحسن بك أن تستعد للأمر يا سيد فول.

اضطرب ليونارد ونهض واقفاً وهو يقول: ولكنك ستبذل قصارى جهدك من أجلي يا سيدي، أليس كذلك؟

فاقترب منه السير ويلفريد ووضع يده على كتفه وقال بصوت ينم عن العطف والمودة: ثق يا سيد فول أنني سأبذل كل ما في استطاعتي لمساعدتك والأخذ بيدك، فلا تنزعج. دع الأمر لي.

- وهل ستهتم بأمر رومين؟ إنها ستكون في حالة يرثى لها، ستكون الصدمة قاسية عليها.

- اطمئن يا بني، اطمئن.

فعاد ليونارد إلى مقعده وقال يحدث مايهيو: والآن لنتحدث في المسائل المالية، إنها تهمني وتزعجني. لقد قلت لك إنني أدخر مالاً، ولكنه قليل. لعله كان يحسن بي ألا ألجأ إليك في طلب المشورة.

فأجاب مايهيو: أظن أن في استطاعتنا الدفاع عنك، وستتولى المحكمة أمر النفقات كما هو متبع في مثل هذه القضايا.

فوثب ليونارد من مكانه مرة أخرى وقال: إنني لا أصدق ولا أستطيع أن أتصور أنني سأقف في قفص الاتهام لأقول: "إنني غير مذنب يا سيدي القاضي" بينما العيون كلها تحملق نحوي!

ثم انتفض كمن يريد أن ينتزع نفسه من حلم مزعج وقال يحدث مايهيو: لست أفهم لماذا لا يردّون أسباب الجريمة إلى السرقة؟ لقد وُجدت إحدى النوافذ محطمة، كما وجدت بعض الأشياء والأوراق مبعثرة في أنحاء المكان. إن السرقة هي التعليل المنطقي للحادث.

فقال مايهيو: لا بد أن لدى الشرطة أسباباً وجيهة لاستبعاد فكرة السرقة.

- ولكن يخيل إلى أن...

وقبل أن يتم عبارته فُتح الباب ودخل كارتر، فسأله السير ويلفريد: ماذا تريد يا كارتر؟

أجاب كارتر وهو يدنو منه: معذرة يا سيدي، ولكن يوجد بالباب رجلان يرغبان في مقابلة السيد فول.

- هل هما من رجال الشرطة؟

- نعم يا سيدي.

- حسناً، سأقابلهما بنفسي.

ثم التفت إلى مايهيو وقال: معذرة يا جون.

ومضى إلى الباب يتبعه كارتر، بينما ارتسم الفزع على وجه ليونارد وقال يحدث مايهيو: هل تظن أنهما قد جاءا للقبض عليّ؟

- أظن ذلك يا بني، فلا تنزعج ولا تفقد رباطة جأشك.

وربت على كتفه بلطف واستطرد قائلاً: لا تُدلِ بأية بيانات أخرى، دع الأمر كله لنا.

فصاح ليونارد: ولكن كيف علم الرجلان أنني هنا؟

- ربما كانت الشرطة قد أطلقت في إثرك من يراقبك.

فهتف الشاب وعلى وجهه دلائل الدهشة والاستنكار: معنى هذا أنهم يرتابون بي حقاً؟

وعاد السير ويلفريد ومعه رجلان، وقال يقدم أكبرهما سناً: السيد هيرني، مفتش الشرطة.

قال المفتش معتذراً: يؤسفني أن أزعجكم أيها السادة، ولكن...

فقاطعه السير ويلفريد وهو يشير نحو فول: ها هو ذا السيد فول.

نهض ليونارد واقفاً، واقترب منه المفتش هيرني وهو يقول: هل تدعى ليونارد فول؟

- نعم.

- لدي أمر بالقبض عليك بتهمة قتل إميلي فرنش يوم ١٤ أكتوبر الماضي، ويجب أن أحذرك بأن كل كلمة تنطق بها ستتخذ قرينة ضدك.

فقال ليونارد وهو يقترب من المشجب ليتناول قبعته: حسناً، إنني على استعداد.

مشى مايهيو إلى حيث كان المفتش وقال: طاب يومك يا سيدي المفتش، اسمي مايهيو، وأنا أمثّل السيد فول.

فقال المفتش في أدب: طاب يومك يا سيدي. سوف أصطحب السيد فول الآن إلى مركز الشرطة حيث سيوجه إليه الاتهام بصفة رسمية ويبدأ التحقيق.

وخرج ليونارد برفقة الرجل الذي جاء مع المفتش،

بينما التفت هذا إلى السير ويلفريد روبرتس وقال: آمل ألا نكون قد أزعجناك يا سير ويلفريد.

- لا شيء يزعجني على الإطلاق.

ضحك مفتش الشرطة في أدب وشيعه السير ويلفريد إلى الباب، ثم عاد أدراجه وقال يحدث مايهيو: يخيل إليّ يا جون أن مركز هذا الشاب أسوأ مما يظن.

- أعتقد مثلك، ولكن ما رأيك فيه؟

- رأيي أنه ساذج إلى أقصى حد، ولكنه ذكي. ويبدو من المؤكد أنه لا يدرك مدى خطورة موقفه.

- أتظن أنه ارتكب هذه الجريمة؟

- لا أستطيع أن أقطع برأي، ولكن أظن بصفة عامة أنه لم يرتكبها. هل توافقني على ذلك؟

- نعم.

وأشعل السير ويلفريد سيجارة وقدم إلى مايهيو علبة تبغ فراح يملأ منها غليونه.

قال السير ويلفريد: يخيل إليّ أنه قد ترك أثراً في أنفسنا معاً، ولكني لم أسمع قط قصة أضعف من قصته. والله وحده يعلم كيف سنستطيع معالجة قضيته، فليس هناك أي دليل لمصلحته سوى شهادة زوجته، ومن ذا الذي سيصدق شهادة زوجته؟

فهز مايهيو رأسه ولم يجب، واستطرد السير ويلفريد قائلاً: ثم إنها زوجة أجنبية، وثلاثة أرباع المحلفين يعتقدون بصفة عامة أن الأجانب لا يتورعون عن الكذب، ومن المؤكد أنها ستكون مضطربة ومنزعجة وأنها لن تفهم جيداً الأسئلة التي سيوجهها ممثل الاتهام. على أن ذلك لا يجب أن يمنعنا من مقابلتها لكي نسبر غورها ونعجم عودها، وأنا واثق سلفاً من أنها سوف تتشنج وتملأ هذه الغرفة عويلاً ونحيباً.

- لعلك تفضل عدم قبول هذه القضية؟

فصاح السير ويلفريد: من قال لك إنني لا أريد قبولها؟ هل لأنني ذكرت أن قصة الشاب غاية في الضعف وتدل على بساطته وسذاجته؟

- ولكنها قصة حقيقية لا زيف فيها.

- لا بد أن تكون صحيحة بدليل بساطتها وسذاجتها، ولكنك إذا جردتها من كل ما ينمقها ونظرت إلى الحقائق وحدها فإنك لن تتردد في إدانة هذا الشاب التعس.

ونظر إلى مايهيو وهو يشعل غليونه ثم استطرد قائلاً: ولكنك في الوقت نفسه حين تنصت إليه وتسمع تلك الحقائق وهي تتدفق من فمه لا يسعك إلا الاعتراف بأن الأمور يمكن أن تكون قد جرت على نحو ما قال. أنا شخصياً كانت لي عمة عجوز كالعمة بتسي وكنت أحبها بجنون... مهما يكن من أمر، فإن للشاب شخصية جذابة تثير العطف وأعتقد أنه

سيترك أثرا طيباً في نفوس المحلفين، ولكنه من البساطة والسذاجة بحيث أخشى عليه أن يرتبك ويفسد الأمور عند استجوابه في المحكمة.

واستغرق في التفكير لحظة ثم قال: إن زوجته ركن هام في القضية، وعليها يتوقف الكثير.

وسمع طرقاً على الباب فصاح: ادخل.

ودخلت جريتا وهي بادية التأثر والانفعال وفي عينيها الزرقاوين الواسعتين هلع وارتياع، ورآها السير ويلفريد تغلق الباب في حذر فسألها: ماذا حدث يا جريتا؟

فأجابت في همس: لقد جاءت السيدة ليونارد فول.

فرفع مايهيو حاجبيه وقال في دهشة: السيدة فول؟!

ورمق السير ويلفريد جريتا بنظرة فاحصة وقال: اقتربي يا جريتا، هل رأيت الشاب الذي كان هنا؟ لقد قُبض عليه لاتهامه بجريمة قتل.

- أعلم ذلك يا سيدي، كان الموقف مثيراً.

- هل تعتقدين أنه ارتكب تلك الجريمة؟

- لا، لا، أنا واثقة من أنه لم يرتكبها.

- لماذا؟

- إنه ألطف وأظرف من أن يرتكب جريمة قتل.

فنظر السير ويلفريد إلى مايهيو وقال: ها نحن قد

أصبحنا ثلاثة.

ثم التفت إلى جريتا وقال: دعي السيدة فول تدخل.

وهرولت جريتا مسرعة بينما واصل السير ويلفريد حديثه، قال مستطرداً: وربما كنا ثلاثة مغفلين، فنهتم بشاب ذي شخصية جذابة!

وفي تلك اللحظة فُتح الباب مرة أخرى ودخلت السيدة فول، فخف مايهيو لاستقبالها مرحباً: أهلاً بك يا سيدة فول.

* * *

الفصل الرابع

كانت رومين، زوجة ليونارد فول، امرأة متوسطة القامة نحيلة الجسم، تدل مشيتها وقسمات وجهها على قوة شخصيتها. وكانت تتكلم الإنجليزية بطلاقة ولكن بلكنة أجنبية واضحة وبصوت تخالطه نبرة تهكم عجيبة.

وقالت حين رأت مايهيو مقبلاً نحوها: هل أنت السيد مايهيو؟

- نعم، وهذا هو السير ويلفريد روبرتس الذي وافق على الاضطلاع بقضية زوجك.

فنظرت إلى السير ويلفريد وحيته بانحناءة من رأسها، ثم قالت تحدث مايهيو: لقد ذهبت إلى مكتبك يا سيد مايهيو فقيل لي إنك وزوجي قد جئتما إلى هنا.

قال السير ويلفريد: تماماً.

فقالت: وعندما وصلت إلى هنا خيل إليّ أنني رأيت زوجي يدخل إحدى السيارات ومعه رجلان.

فقال السير ويلفريد بشيء من الارتباك: أرجو أن

تتمالكي أعصابك يا سيدة فول، هلا تفضلت بالجلوس أولاً؟

وقدم إليها مقعداً فجلست في هدوء ولم يبدُ عليها أي أثر للقلق أو الانفعال، قالت ببساطة: شكراً لك.

قال: ليس في الأمر حتى الآن ما يدعو إلى القلق، وكذلك بجدر بك ألا تستسلمي إلى اليأس.

فأجابت ببساطة: آه، كلا. لن أستسلم لليأس.

- إذن يجب أن أقول لك إن زوجك قد أُلقي القبض عليه كما كنت تتوقعين.

- بتهمة قتل الآنسة إميلي فرنش؟

- نعم، ولكن أرجو ألاّ تنزعجي.

- إنك لا تكف عن ترديد هذه العبارة يا سير ويلفريد، ولكني لست منزعجة أبداً.

- طبعاً، طبعاً، أرى أنك قوية الإرادة. المهم أن يحتفظ الإنسان بهدوئه حتى يستطيع معالجة الأمور بحكمة وروية.

- ذلك هو عين الصواب يا سير ويلفريد، ولكن يجب ألا تخفي عني شيئاً، لا تُخفِ عني شيئاً مهما كان سيئاً. أريد أن أعرف الحقائق كلها بصرف النظر عن قسوتها ومرارتها.

- هذه هي أفضل طريقة لمعالجة الموقف. أصغي إليّ يا سيدتي العزيزة، نحن لا يجب أن نستسلم للجزع واليأس، بل واجبنا أن ننظر إلى الأمور نظرة موضوعية هادئة.

قال ذلك وجلس على مقعد أمام مكتبه واستطرد قائلاً: لقد توثقت أواصر الصداقة بين زوجك والآنسة فرنش منذ نحو ستة أسابيع، فهل كنت على علم بهذه الصداقة؟

- أذكر أن زوجي قال لي يوماً إنه أنقذ سيدة عجوز ولفائفها من طريق مزدحم بالسيارات وإن السيدة طلبت إليه أن يزورها.

- أظن أن ذلك أمر طبيعي، ولقد ذهب زوجك فعلاً لزيارتها؟

- نعم.

- وتوثقت بينهما أواصر صداقة عظيمة؟

- يبدو ذلك.

- ألم تفكري في مرافقة زوجك في إحدى زياراته للآنسة فرنش؟

- لقد رأى من الأفضل ألا أرافقه.

فنظر إليها بحدة وقال: كان من رأي زوجك ألا ترافقيه! هذا حسن، ولكن بيني وبينك: لماذا فضل زوجك ألا ترافقيه؟

- كان يعتقد أن الآنسة فرنش تفضل ذلك.

فهز السير ويلفريد رأسه بحركة عصبية وقال: حسناً، حسناً. سوف نناقش هذا الموضوع في وقت آخر. توثقت

إذن أواصر صداقة بين زوجك والآنسة فرنش فعاونها في بعض شؤونها، وكانت هي سيدة عجوزاً وحيدة لديها وقت لا تعرف كيف تشغله، فطابت لها صداقة زوجك ومجالسته.

- نعم، إن ليونارد يستطيع أن يكون ظريفاً عندما يريد.

- أنا واثق من ذلك، ولا بد أنه أحس بأن مجالسة العجوز المسكينة والترفيه عنها هو ضرب من ضروب البر والرحمة.

- إنه كذلك.

- أنت نفسك لم تعترضي على صداقة زوجك لهذه السيدة العجوز؟

- لا أظن أنني اعترضت.

- وأنت طبعاً تثقين بزوجك ثقة عمياء يا سيدة فول لأنك تعرفينه حق المعرفة وتقدرين...

فقاطعته قائلة: نعم، أنا أعرفه حق المعرفة.

- ليس بوسعي أن أعبر عن مدى إعجابي بهدوئك وشجاعتك يا سيدة فول، ولما كنت أعرف مبلغ إخلاصك لزوجك و...

- أو تعرف إذن مبلغ إخلاصي له؟

- طبعاً.

- ولكن معذرة، إنني أجنبية وغريبة عن هذه البلاد،

وهناك اصطلاحات وتعبيرات أجنبية لا أفهمها جيداً، ولكن أليس لديكم مثل إنجليزي يقول ما معناه أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف إنساناً آخر إلا إذا عاشره؟ فكيف عرفت أنني أخلص لزوجي رغم أنك لم ترني إلا منذ بضع دقائق؟

وابتسمت فأحس السير ويلفريد كأنه قد صُدم وأجاب: ذلك ما قاله لي زوجك.

- هل قال لك ليونارد إنني أخلص له؟

- لقد تحدثت عن إخلاصك له بعبارات رقيقة مؤثرة.

- ما أشد غباء الرجل!

- ماذا قلت يا سيدتي؟

- لا عليك مما قلت، أرجوك أن تمضي في حديثك.

فرمقها السير ويلفريد بنظرة طويلة كما لو كان يريد أن يسبر غورها ويعرف ما يعتمل في أعماق نفسها، ولكن وجهها بدا صلباً جامداً لا ينم عن شيء.

قال: كانت الآنسة فرنش على جانب عظيم من الثراء، ولم يكن لها أقارب، وكانت -كأغلب العوانس- شغوفة بكتابة الوصايا وإلغائها وكتابة غيرها، وقد كتبت خلال حياتها عدداً كبيراً من الوصايا، وبعد أن قابلت زوجك كتبت وصية جديدة وتركت لزوجك بمقتضاها كل ثروتها فيما عدا مبالغ يسيرة أوصت بها لبعض المؤسسات الخيرية.

فقالت رومين ببساطة: نعم.

فهتف السير ويلفريد في دهشة: هل كنت تعلمين ذلك؟

- لقد قرأت ما نشر في صحف المساء.

- وقبل قراءة الصحف، ألم تكن لديك أية فكرة عن هذا الموضوع؟ ألم يكن لدى زوجك فكرة عنه؟

فساد صمت عميق قطعته رومين أخيراً بقولها: هل قال زوجي إنه لم تكن لديه فكرة؟

- نعم، فهل لديك أنت معلومات مغايرة؟

- لا، لا، ليس عندي ما أقوله في هذا الموضوع.

- يبدو أنه ليس ثمة شك في أن الآنسة فرنش كانت تنظر إلى زوجك كابن، أو كابن أخ أو أخت؟

- أتعتقد أنها كانت تنظر إليه كابن؟

وكان في صوتها رنة سخرية لم تغب عن ملاحظة السير ويلفريد والسيد مايهيو. قال أولهما: نعم، أعتقد ذلك بصفة قاطعة، وهو أمر يبدو طبيعياً تماماً في ظروف هذه السيدة.

فقالت رومين بهدوء: ما أشد نفاقكم أيها الإنجليز!

فدُهش السير ويلفريد، وتحرك السيد مايهيو في مقعده بقلق.

قال المحامي الكبير: ما هذا الذي تقولينه يا سيدة فول؟

- يبدو أنني أفتقر إلى الكياسة وأنك قد صدمت بي، أنا آسفة.

- لا بأس، لا بأس، إن لكم معشر الأوروبيين نظرتكم الخاصة إلى الأمور، ولكني أؤكد لك يا سيدة فول أنك تسيئين فهم العلاقة بين زوجك والآنسة فرنش وأنه ليس من الحكمة بتاتاً أن تزعمي تلميحاً أو تصريحاً بأن شعور الآنسة فرنش نحو زوجك كان يختلف عن شعور الأم أو العمة.

- فلنقل إذن أنه شعور العمة، ما دمت تريد ذلك.

- يجب أن نحسب حساب وقع هذه الأمور في نفوس المحلفين يا سيدة فول.

- هذا صحيح، وأنا شخصياً قد فكرت ملياً في هذا الموضوع.

- إن المصلحة تقضي بأن نعمل معاً كفريق واحد. والآن لنتحدث عن مساء اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر، أي قبل أسبوع من اليوم. هل تذكرين ذلك المساء؟

- نعم، أذكره جيداً.

- في ذلك المساء ذهب ليونارد فول لزيارة السيدة فرنش، وكانت جانيت ماكنزي مدبرة البيت في إجازة، فلعب السيد فول الورق مع الآنسة فرنش، ثم استأذنها في الانصراف حوالي الساعة التاسعة وعاد إلى بيته سيراً على الأقدام فبلغه في الساعة التاسعة والدقيقة ٢٥ على وجه التقريب.

قال ذلك ونظر إليها متسائلاً، ولكنها لم تجب على الفور ونهضت من مقعدها واقتربت من الموقد، فنهض

الرجلان بدورهما وتبعاها بأبصارهما. قالت وكأنها تتحدث إلى نفسها: الساعة التاسعة والدقيقة ٢٥ على وجه التقريب؟

فقال السير ويلفريد مستطرداً: وفي الساعة التاسعة والنصف عادت جانيت ماكنزي إلى البيت لتأخذ شيئاً نسيته، فلما مرت بقاعة الاستقبال سمعت صوت الآنسة فرنش وهي تتحدث إلى رجل، فاستنتجت أن الرجل هو ليونارد فول. وقد صارحني المفتش هيرني بأن هذا الاستنتاج هو الذي أدى إلى اعتقال زوجك، في حين أن زوجك أكد لي أنه كان في البيت معك في الساعة التاسعة والنصف، أي في وقت ارتكاب الجريمة.

وسكت السير ويلفريد ونظر إلى رومين ولكنها لزمت الصمت. فوجه إليها السؤال مباشرة، قال: إنه كان في البيت معك في الساعة التاسعة والنصف، أليس كذلك؟

وتعلقت عينا الرجلين بشفتيها فقالت في هدوء: هل ذلك ما قاله لك ليونارد؟ هل قال لك إنه كان في البيت الساعة التاسعة والنصف؟

فصاح السير ويلفريد بحدة: أليست هذه هي الحقيقة؟

وصمتت المرأة مرة أخرى وطال صمتها، وأخيراً عادت إلى مقعدها وقالت بهدوئها المعهود: طبعاً، طبعاً.

فتنهد السير ويلفريد بارتياح وجلس بدوره وقال: ألم يستجوبك رجال الشرطة في هذه النقطة؟

- بل استجوبوني، لقد جاؤوا إلى البيت مساء أمس.

- وماذا قلت لهم؟

فأجابت رومين بصوت من يردد شيئاً حفظه عن ظهر قلب: قلت إن ليونارد عاد إلى البيت في ذلك المساء في الساعة التاسعة والدقيقة ٢٥ ولم يغادره بعد ذلك.

فقال مايهيو في قلق: هل قلت ذلك؟

- أليس هذا ما تريدون أن أقوله؟

فقال السير ويلفريد: ماذا تعنين بذلك يا سيدة فول؟

فأجابت بصوت عذب: لقد طلب إليّ ليونارد أن أقول ذلك.

- ولكن أليست هذه هي الحقيقة؟

- يجب أن أفهم الموقف أولاً لكي أكون على يقين. هب أنني قلت إن ليونارد كان معي في البيت في الساعة التاسعة والنصف، فهل يطلقون سراحه؟

كان موقفها محيراً للرجلين، وكانت النظرة التي تبادلاها تدل على مدى حيرتهما. وأخيراً نهض مايهيو من مقعده واقترب من رومين وهو يقول: إذا تكلمت بصراحة أنت وزوجك وذكرتما الحقيقة فلا شك أنهم سيطلقون سراحه.

- ولكني حين قلت لرجال الشرطة ما قلت خيل إليّ أنهم لم يصدقوني.

ولم يبدُ عليها الضيق أو الحزن، بل على العكس، كان يبدو أنها تشعر بالارتياح. وسألها السير ويلفريد: وماذا يحملك على الاعتقاد بأنهم لم يصدقوك؟

فأجابت: ربما لم أحسن الكلام أو التعبير.

والتقت عيناها بعيني السير ويلفريد في نظرة صلبة كالفولاذ تنم عن البغض والعداء، ولكن الرجل سرعان ما تمالك نفسه وقال في هدوء: الواقع يا سيدة فول أنني لا أكاد أفهم حقيقة موقفك من هذه القضية.

- أحقاً؟ ربما لأنه موقف دقيق.

- أو لأن موقف زوجك غير واضح لك؟

- لقد قلت إنني أريد أن أعرف حقيقة مركز زوجي في القضية ومدى حرجه وسوئه، وقلت لرجال الشرطة إن ليونارد كان بالبيت معي في الساعة التاسعة والنصف فلم يصدقوني. ولكن ألا يحتمل أن يكون هناك إنسان رآه وهو يغادر بيت الآنسة فرنش أو قابله وهو في الطريق إلى البيت؟

ورمقت الرجلين بنظرة حادة خبث ودهاء. ونظر السير ويلفريد إلى مايهيو متسائلاً فقال هذا: زوجك لا يذكر أنه قابل أحداً يعرفه ويستطيع أن يؤيد أقواله.

- إذن فلن يكون هناك سوى أقوال زوجي وأقوالي.

ورددت الكلمة الأخيرة وضغطت عليها: «وأقوالي». ثم نهضت بغتة وهي تقول: شكراً لكما، ذلك ما أردت معرفته.

وهمت بالانصراف فصاح بها مايهيو: لا تذهبي يا سيدة فول، فهناك أمور أخرى كثيرة يجب مناقشتها.

- لن أناقش شيئاً.

- لماذا يا سيدة فول؟

- لأنني سأقسم يميناً بأن أقول الصدق ولا شيء غير الصدق، أليس كذلك؟

فقال السير ويلفريد: بلى، هذا هو القسم.

فقالت بسخرية صريحة واضحة: هب أنني أقسمت اليمين وأنك سألتني... وهنا غيرت صوتها فصار في خشونة أصوات الرجال: متى عاد ليونارد فول إلى البيت في تلك الليلة؟ فماذا أقول؟

- ماذا تقولين؟

- هناك أشياء كثيرة أستطيع أن أقولها.

فرمقها السير ويلفريد بعينه وسألها في حزم: هل تحبين زوجك يا سيدة فول؟

فأجابت وهي ترمق مايهيو من ركن عينيها بنظرة ساخرة: ليونارد يقول أنني أحبه.

فقال مايهيو: ليونارد فول يعتقد أنك تحبينه.

- إن ليونارد ليس ذكياً كما يبدو لك.

فقال السير ويلفريد: هل تعلمين يا سيدة فول أن القانون

يحظر دعوتك للشهادة ضد زوجك؟

- هذا أمر يؤسف له؟

- وأن زوجك يستطيع أن...

فقاطعته قائلة: إنه ليس زوجي.

- ماذا؟!

- ليونارد فول ليس زوجي. كان قد ساعدني في الخروج من المنطقة الروسية فعقدنا زواجاً شكلياً في برلين، وجاء بي إلى هذه البلاد، ولكنه لا يعلم أنني كنت متزوجة فعلاً وأن زوجي كان أسيراً في روسيا.

- تقولين إنه أنقذك من المنطقة الروسية وجاء بك إلى هذه البلاد لكي تعيشي بها في أمن وسلام؟ إذن يجب أن تكوني شاكرة له.

- إن الإنسان قد يتعب من كثرة ما ردد من عبارات الشكر.

- هل أساء إليك ليونارد فول على نحو ما؟

فأجابت باحتقار: ليونارد؟ يسيء إليّ؟ إنه يقدس الأرض التي أطؤها بقدمي.

- وأنت؟

ومرة أخرى، تلاقت عيونهما في نظرة فضحت الصراع بين شخصيتهما القويتين. وأخيراً ضحكت المرأة ودارت

على عقبيها وهي تقول: أنت تريد أن تعرف أكثر مما ينبغي لك أن تعرفه.

فقال لها مايهيو: إن عبارتك تتسم بالغموض وهناك مسائل تحتاج إلى الصراحة والوضوح، فمثلاً ماذا حدث بالتحديد في مساء يوم ١٤ أكتوبر؟

فأجابت رومين بصوت من يردد كلاماً حفظه عن ظهر قلب: عاد ليونارد إلى البيت في الساعة التاسعة والدقيقة ٢٥ ولم يغادر بعد ذلك.

ثم قالت: هذه الإجابة خليقة بأن تنقذه من تبعات الجريمة، أليس كذلك؟

فأجاب السير ويلفريد: بلى.

والتقت عيناه بعينيها. قالت: نعم يا سير ويلفريد؟

- أنت امرأة فذة يا سيدة فول.

- أرجو أن تكون راضياً عني.

وانصرفت فشيعها ويلفريد ببصره حتى توارت ثم قال: أنا لا أشعر بالارتياح يا جون.

- إن هذه المرأة تضمر أمراً، ولكن ما هو؟

- المهم أنها لم تملأ الغرفة نحيباً كما كنا نتوقع.

- إنها باردة كالثلج.

- ترى ماذا يحدث إذا دعوناها للشهادة؟

- ذلك أمر لا يعلمه إلا الله.

- إن في استطاعة ممثل الاتهام أن يحطمها في لمح البصر، خاصة إذا كان ممثل الاتهام هو مايرز.

قال السير ويلفريد: إذا لم يقم المدعي العام نفسه بتمثيل الاتهام فمن المؤكد أنه سينيب عنه مايرز.

- وماذا ستكون خطتك في الدفاع؟

- الخطة المألوفة، سأقاطعه وأواصل مقاطعته ما استطعت.

فقال مايهيو: إن ما يحيرني هو إيمان ليونارد بإخلاص زوجته.

- إن أية امرأة تستطيع أن تخدع الرجل إذا شاءت، خاصة إذا كان الرجل يحبها.

- إنه يحبها فعلاً، وهو يضع فيها كل ثقته.

- ذلك دليل على غبائه، ما أشقى الرجل الذي يضع كل ثقته في امرأة!

* * *

الفصل الخامس

بعد ستة أسابيع مضت في جحيم من الشك والقلق وقف ليونارد فول أخيراً في قفص الاتهام بمحكمة أولد بيلي ليسمع كلمة القضاء في الاتهام الموجه إليه.

كان من بواعث ألمه وشقائه خلال الأسابيع التي قضاها في السجن قبل مثوله أمام المحكمة أن رومين لم تزره ولو لمرة واحدة لتسبغ عليه من عطفها وحنانها ما يملأ قلبه ثقة وطمأنينة في المحنة التي يمر بها. كان الزائر الوحيد الذي طرق باب سجنه هو مايهيو الذي استطاع بلباقته وكياسته أن يتجنب الحديث عن رومين حتى لا يزيد السجين هماً على هم.

وكان أول ما فعله ليونارد حين جيء به إلى قفص الاتهام أنه أجال البصر حوله في لهفة باحثاً عن رومين، ولكنه لم يجد لها أثراً. ولم يعرف ليونارد بين الجموع التي احتشدت في قاعة الجلسة سوى السير ويلفريد وجون مايهيو، وقد نظر إليه الأول مشجعاً بينما راح الثاني يتصفح أوراق ملف أمامه.

وما أن دخل القاضي واحتل مكانه في صدر القاعة حتى ساد سكون عميق ضاعف إحساس ليونارد برهبة الموقف.

وبدأت إجراءات المحاكمة على الفور، فأقسم المحلفون اليمين وتلا كاتب الجلسة نص الاتهام، قال: ليونارد فول، أنت متهم بأنك في اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر الماضي وفي مدينة لندن قتلت المجني عليها إميلي فرنش، فهل أنت مذنب أو غير مذنب؟

فقال ليونارد: غير مذنب.

قال الكاتب موجهاً كلامه إلى المحلفين: إن السجين الماثل متهم بأنه في الرابع عشر من شهر أكتوبر الماضي قد قتل المجني عليها إميلي فرنش، وقد أجاب على الاتهام بأنه غير مذنب، ومهمتكم الآن هي أن تقرروا بعد سماع الأدلة وأقوال الشهود ما إذا كان المتهم مذنباً أو غير مذنب.

وأشار الكاتب إلى ليونارد بأن يجلس، ونهض السيد مايرز ممثل الاتهام ليلقي خطابه ولكن القاضي قال له: مهلاً لحظة يا سيد مايرز.

ثم التفت إلى هيئة المحلفين وقال: إن الوقت المناسب لتلخيص القضية لكم وتبصيركم بأحكام القانون يكون عادة بعد سماعكم الأدلة وأقوال الشهود ومرافعة الادعاء والدفاع. ولكن لما كانت الصحف قد تعرضت لهذه القضية وكتبت عنها الكثير فإنني أود أن أقول لكم الآن ما يلي: إن اليمين التي أقسمتموها في التو واللحظة تحتم عليكم أن تصدروا قراركم في هذه القضية على ضوء الأدلة وأقوال الشهود، وهذا يعني الأدلة والأقوال التي ستسمعونها هنا في

هذه القاعة بصرف النظر عن أية أدلة أو أقوال سمعتموها أو قرأتموها قبل حلف اليمين، فامحوا من أذهانكم كل شيء إلا ما سوف ترونه أو تسمعونه في هذه القاعة ولا تسمحوا لأي عامل أو اعتبار أن يؤثر عليكم لمصلحة المتهم أو ضده، وأنا واثق أنكم ستؤدون واجبكم بما تمليه عليكم ضمائركم.

نهض مايرز وسعل وأصلح وضع شعره المستعار وقال: سيدي القاضي، سيداتي وسادتي أعضاء هيئة المحلفين، إنني وصديقي السيد بارتون نمثل الاتهام في هذه القضية، بينما يمثل صديقاي السير ويلفريد روبرتس والسيد جون مايهيو هيئة الدفاع عن المتهم. إن قضيتنا اليوم هي جريمة قتل، وحقائقها بسيطة وليست موضع نزاع، وستعلمون الآن كيف تعرف المتهم، وهو شاب وسيم في الثلاثين من عمره، على الآنسة إميلي فرنش العانس العجوز التي تناهز السادسة والخمسين، وكيف أن السيدة الطيبة أحسنت إليه وشملته بعطفها ورعايتها، بل وأغدقت عليه حبها، أما طبيعة هذا الحب فأمرها سوف يترك لتقديراتكم الخاصة. وسيقول لكم الطبيب الشرعي الدكتور ويات أن وفاة المجني عليها حدثت في وقت ما بين التاسعة والنصف والعاشرة من مساء اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر، وستسمعون أقوال جانيت ماكنزي الخادمة الأمينة للآنسة فرنش ومدبرة بيتها. ففي الرابع عشر من شهر أكتوبر الماضي، وكان يوم جمعة وهو يوم إجازة جانيت ماكنزي، عادت هذه الأخيرة إلى بيت مخدومتها في الساعة التاسعة والدقيقة ٢٥ وقضت في

البيت بضع دقائق لاسترداد شيء كانت قد نسيته. كانت قد دخلت البيت بمفتاح معها ومرت بباب قاعة الاستقبال في طريقها إلى الدرج المؤدي إلى غرفتها، وستقول لكم جانيت ماكنزي إنها عندما مرت بقاعة الاستقبال سمعت صوت فرنش وهي تتحدث إلى شخص عرفت من صوته أنه المتهم ليونارد فول...

وهنا هب ليونارد واقفاً في قفص الاتهام وصاح: هذا كذب، ذلك لم يكن صوتي.

ومضى ممثل الاتهام في سرد وقائع القضية، قال: وقد دهشت جانيت ماكنزي لأنها تعلم أن سيدتها لم تكن تتوقع زيارة ليونارد فول في ذلك المساء. ومهما يكن من أمر فقد انصرفت جانيت بعد أن أخذت الشيء الذي كانت قد نسيته في غرفتها، وعندما عادت إلى البيت مرة أخرى في الساعة الحادية عشرة لتقضي ليلتها كما جرت العادة وجدت الآنسة فرنش جثة هامدة وقاعة الاستقبال مضطربة ونافذتها محطمة وستائرها تتطاير بفعل الريح. وذعرت الخادمة واتصلت فوراً بالشرطة، وقد أُلقي القبض على المتهم في اليوم العشرين من شهر أكتوبر، أي بعد ستة أيام من وقوع الجريمة. والقضية في نظر الاتهام تتلخص في أن إميلي فرنش قُتلت فيما بين الساعة التاسعة والنصف والعاشرة من مساء يوم ١٤ أكتوبر الماضي بضربة أصابت رأسها بقضيب من الحديد، وأن الذي أهوى على رأسها بالضربة القاتلة هو المتهم، ليونارد فول.

ثم قال: وسأدعو الآن المفتش هيرني للإدلاء بأقواله.

وتقدم المفتش هيرني، وهو رجل وسيم طويل القامة، فأقسم اليمين وقال إن اسمه روبرت هيرني وإنه مفتش بإدارة المباحث الجنائية باسكتلانديارد.

والتفت مايرز إلى المفتش وقال: الآن أيها المفتش هيرني، هل كنت تؤدي واجبات وظيفتك في اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر الماضي عندما تلقيت من جانيت ماكنزي مكالمة تليفونية عاجلة؟

- نعم يا سيدي.

- ماذا فعلت بعد أن تلقيت المكالمة؟

- ذهبت مع الشرطي راندال إلى المنزل رقم ٣٣ بشارع أشبوري ودخلت المنزل، ووجدت صاحبته التي علمت فيما بعد أنها تدعى إميلي فرنش جثة هامدة. كانت منبطحة على وجهها وقد أصيب رأسها من الخلف بإصابات جسيمة، ولاحظت أن محاولة قد بُذلت لفتح إحدى النوافذ عنوة بأداة يحتمل أن تكون مبرداً وأن إطار النافذة محطم بالقرب من المزلاج، ووجدت بعض قطع الزجاج مبعثرة على الأرض خارج النافذة.

سأله مايرز: هل لوجود الزجاج داخل النافذة أو خارجها دلالة خاصة؟

فقال هيرني: إن وجود قطع الزجاج خارج النافذة لا يدل بالضرورة على أن النافذة قد اقتُحمت من الخارج.

- هل تعني أن النافذة إذا كانت حطمت من الداخل فإن محاولة قد جرت بقصد التمويه لجعلها تبدو وكأنها حطمت من الخارج؟

فنهض السير ويلفريد واقفاً وصاح: أعترض، إن صديقي ممثل الادعاء بضع الألفاظ في فم الشاهد، ومن واجبه أن يراعي التقاليد المألوفة في استجواب الشهود.

وجلس، فقال مايرز للشاهد: هل اشتركت في تحقيق كثير من حوادث السرقة واقتحام المنازل؟

- نعم يا سيدي.

- وعلى ضوء تجاربك وخبراتك، أين توجد قطع الزجاج عادة حين تقتحم النافذة من الخارج؟

فأجاب المفتش: توجد بالداخل.

- هل اتفق لك في أي حادث من حوادث السطو التي قمت بتحقيقها وكانت النافذة قد حُطّمت من الخارج أن وجدت قطع الزجاج مبعثرة على الأرض على مسافة بعيدة من النافذة؟

- لا، لا.

- حسناً، استمر.

قال المفتش: أجرينا تفتيشاً والتقطنا صوراً فوتوغرافية ورفعنا آثار البصمات.

- وماذا وجدتم من البصمات؟

- وجدنا بصمات إميلي فرنش نفسها وبصمات جانيت ماكنزي وبصمات أخرى ثبت أنها للمتهم ليونارد فول.

- هل كانت هناك بصمات أخرى؟

- كلا.

- هل قمت بعد ذلك بمقابلة ليونارد فول؟

- نعم يا سيدي. لم تكن جانيت ماكنزي تعرف عنوانه، فأصدرنا نداء نشرته الصحف وأذيع في الراديو، وكانت النتيجة أن جاء السيد فول لمقابلتي.

فقال السير ويلفريد وهو ينهض: ذلك بالذات ما لم يقله المفتش، وما قاله الادعاء الآن هو إيحاء للشاهد بأسلوب ملتو وإني أعترض عليه.

فقال القاضي: أنت على حق يا سير ويلفريد.

وهنا جلس مايرز واستطرد القاضي قائلاً: وفي الوقت نفسه أرى من حق المفتش أن يضمّن شهادته جميع الحقائق التي قد تثبت أن الاضطراب الذي ساد قاعة الاستقبال لم يكن بفعل شخص اقتحم القاعة من الخارج بقصد السرقة.

فقال السير ويلفريد: إنني أتفق مع سيدي القاضي فيما ذكره، وأنا لا أعترض على الحقائق ذاتها وإنما أعترض على الآراء التي تطرح دون أن يكون لها سند من الحقائق.

وجلس السير ويلفريد فنهض مايرز وقال: أيها المفتش، هل تستطيع أن تقرر مما شاهدته أن تحطيم النافذة كان أو لم يكن بحسن نية؟

فنهض السير ويلفريد مرة أخرى وقال: سيدي القاضي، أرى لزاماً عليّ أن أستمر في الاعتراض، فإن صديقي ممثل الادعاء لا يزال يحاول الحصول من الشاهد على رأي لا يقوم على الحقائق.

قال القاضي: نعم، ويحسن بك يا سيد مايرز أن تقوم بمحاولة أخرى أفضل.

فقال مايرز: أيها المفتش، هل وجدت دليلاً على أن النافذة لم تقتحم من الخارج؟

- لم أجد دليلاً غير قطع الزجاج يا سيدي.

- لا شيء سوى قطع الزجاج؟

- نعم.

قال القاضي: يبدو أننا خرجنا من الحوار حول هذه النقطة بلا نتيجة.

فقال مايرز موجهاً الكلام إلى المفتش: هل كانت الآنسة فرنش تتحلى بمجوهرات ذات قيمة؟

- كانت تتحلى بعقد وخاتمين من الماس تربو قيمتها على تسعمئة من الجنيهات.

- هل وجدت هذه الحلي في أماكنها دون أن تمس؟

- نعم يا سيدي.

- هل فُقد شيء من البيت؟

- لم يُفقد شيء.

- بصفتك مفتش شرطة لك تجاربك وخبراتك، هل من المألوف أن يقتحم أحد اللصوص بيتاً ثم ينصرف دون أن يأخذ شيئاً؟

- كلا، اللهم إلا إذا فاجأه أحد.

- وفي قضية اليوم، ليس ثمة ما يدل على أن اللص قد فاجأه أحد، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- هل هناك سترة تريد عرضها أيها المفتش؟

- نعم.

وهنا حمل حاجب المحكمة سترة كانت موضوعة على إحدى الموائد مع أدوات لها صلة بالجريمة وقدمها إلى مفتش الشرطة.

قال مايرز: هل هذه هي السترة؟

- نعم يا سيدي.

وأعاد الحاجب السترة إلى مكانها فوق المائدة. قال

مايرز: من أين جئت بها؟

- وجدتها في بيت المتهم بعد أيام من اعتقاله، وقدمتها إلى السيد كليج بالمعمل الجنائي لفحصها عسى أن تكون بها آثار دماء.

- والآن أيها المفتش، هل لك أن تقدم وصية الآنسة إيميلي فرنش؟

حمل الحاجب الوصية إلى المفتش الذي أجاب: نعم يا سيدي.

- هل الوصية مؤرخة في ٨ أكتوبر.

- نعم.

وهنا استرد الحاجب الوصية من مفتش الشرطة ووضعها على المائدة.

قال مايرز: هل أوصت الآنسة إميلي فرنش بكل ثروتها للمتهم فيما عدا بعض مبالغ صغيرة للمؤسسات الخيرية؟

- نعم.

- ما قيمة الميراث الذي سيؤول إلى المتهم؟

- ما أمكن حصره حتى الآن تربو قيمته على خمسة وثمانين ألفاً من الجنيهات بعد خصم ضرائب التركات.

وجلس مايرز ونهض السير ويلفريد لاستجواب الشاهد. قال: ذكرت أن بصمات الأصابع التي وجدت في المكان

كانت خاصة فقط بالآنسة فرنش، وليونارد فول، وجانيت ماكنزي. فأخبرني بما لك من تجارب: هل اللصوص الذين يسطون على البيوت يتركون عادة بصمات أصابعهم أم يستخدمون قفازات؟

- يستخدمون قفازات.

- جميعهم بلا استثناء؟

- جميعهم تقريباً.

- إذا وقع حادث سطو ولم تظهر بصمات فهل يدهشك ذلك؟

- كلا.

- حسناً، لننتقل الآن إلى آثار المبرد التي وجدت على النافذة، هل كانت هذه الآثار داخل النافذة أم خارجها؟

- كانت خارجها.

- ألا يدل ذلك على أن النافذة قد اقتُحمت من الخارج؟

- كان بوسع الجاني أن يخرج من البيت ويحدث هذه الآثار، كما كان بوسعه أن يحدثها من الداخل.

- وتقول من الداخل أيها المفتش؟ كيف كان في استطاعته أن يفعل ذلك؟

- توجد في قاعة الاستقبال نافذتان متلاصقتان، ومن السهل على أي إنسان داخل القاعة أن يفتح إحدى النافذتين

ويطل منها برأسه ويحاول تحطيم النافذة الثانية من الخارج.

- أخبرني أيها المفتش، هل وجدت مبرداً بالقرب من مكان الحادث أو في بيت المتهم؟

- نعم يا سيدي، وجدت مبرداً في بيت المتهم.

- أحقاً؟

- نعم، ولكن آثاره تختلف عن الآثار التي وجدت على النافذة.

- هل كانت هناك رياح نشطة في ليلة الرابع عشر من شهر أكتوبر؟

- الواقع أنني لا أذكر يا سيدي.

- قال صديقي ممثل الاتهام إن جانيت ماكنزي لاحظت تطاير الستائر في نوافذ قاعة الاستقبال، فهل لاحظت ذلك أنت أيضاً؟

فأجاب المفتش: نعم، لاحظت أن الستائر تتطاير.

- هب أن لصاً فتح النافذة عنوة من الخارج وتركها مفتوحة، ألا يمكن مع وجود ريح نشطة أن تصطفق النافذة بقوة ويتحطم زجاجها وتسقط أجزاء منه في الخارج؟

- ذلك ممكن.

- لوحظ مع الأسف أن جرائم العنف قد زادت زيادة كبيرة هذه الأيام، فهل هذا صحيح؟

أجاب المفتش: معدلها زاد عن المألوف يا سيدي.

- لنفترض أن جماعة من الشباب المنحرفين قرروا اقتحام بيت الآنسة فرنش ومهاجمتها وسرقتها، وأن أحدهم ضربها بقضيب من الحديد فماتت، أفلا يحتمل أن يكون الفزع قد استولى عليهم فولوا الأدبار دون أن يأخذوا شيئاً؟ أو أن نيتهم كانت منصرفة إلى سرقة النقود فقط فلما لم يجدوا بغيتهم أشفقوا على أنفسهم من سرقة المجوهرات؟

فصاح مايرز: أعتقد أنه من المستحيل على المفتش هيرني أن يقرأ أفكاراً خطرت لجماعة من الشباب المنحرفين ربما لم يكن لهم وجود إطلاقاً.

فلم يعقب السير ويلفريد على اعتراض مايرز وقال يحدّث مفتش الشرطة: هل تقدم المتهم إليكم من تلقاء نفسه وأدلى بما لديه من معلومات طواعية واختياراً؟

- نعم.

- هل أصر المتهم في جميع الظروف على أنه بريء؟

- نعم.

- أيها المفتش هيرني، هل لك أن تتفضل بفحص هذا السكين؟

وقدم حاجب المحكمة إلى المفتش سكيناً فتناوله هذا وفحصه بينما سأله السير ويلفريد: هل رأيت هذا السكين قبل الآن؟

- هذا هو السكين الذي أُخذ من مطبخ شقة ليونارد فول والذي لفتت زوجة المتهم نظري إليه عندما قابلتها أول مرة.

وهنا هب مايرز واقفاً وقال: سيدي القاضي، اسمح لي بأن أقول -حرصاً على وقت المحكمة- أننا نسلم بأن هذا السكين الذي يمسك به المفتش هيرني الآن هو سكين كان في حوزة ليونارد فول.

فقال السير ويلفريد: هل هذا صحيح أيها المفتش؟

- نعم يا سيدي.

- هل هذا السكين من النوع الذي يسمى بالسكين الفرنسية؟

- أظن ذلك يا سيدي.

- أرجو أن تختبر حد السكين بإصبعك في حذر، ألا ترى أنه حاد كالموس؟

- نعم.

- هب أنك استخدمته في قطع شريحة من اللحم المقدد وأن يدك انزلقت بها، فهل يمكن أن تحدث جرحاً عميقاً ينزف منه الدم بغزارة؟

فهب مايرز واقفاً وقال: أعترض على هذا السؤال، إنه يهدف إلى استطلاع رأي الشاهد في موضوع من اختصاص الطب.

وتقدم الحاجب فتناول السكين وأعاده إلى مكانه فوق المائدة بينما قال السير ويلفريد: أنا أسحب هذا السؤال، ولكني سألقي عليك سؤالاً آخر أيها المفتش. عندما استجوبت المتهم بشأن بقع من الدم وُجدت على كم السترة، هل دلك على جرح في رسغ يده اندمل حديثاً وقال لك إنه أصيب به من سكين المطبخ بينما كان يقطع شريحة من اللحم المقدد؟

فأجاب المفتش: نعم، قال لي ذلك.

- وهل قالت لك زوجة المتهم نفس الكلام؟

- قالت ذلك في أول مقابلة، ولكن بعد ذلك...

فقاطعه السير ويلفريد بأن صرخ في وجهه: أريد إجابة بسيطة بكلمة نعم أو لا. هل قدمت إليك زوجة المتهم هذا السكين وقالت لك إن زوجها قد جُرح به بينما كان يقطع شريحة من اللحم؟

- نعم.

وقنع السير ويلفريد من استجواب الشاهد بهذا القدر وعاد إلى مقعده، بينما نهض مايرز ليلقي على الشاهد مزيداً من الأسئلة.

قال: ماذا لفت نظرك إلى هذه السترة أيها المفتش؟

- لاحظت أن أحد أكمامها قد غُسل حديثاً.

- ومن ثم ذكروا لك حادث السكين وشريحة اللحم؟

- نعم.

- ثم لُفت نظرك إلى جرح في رسغ المتهم؟

- نعم.

- لنسلم جدلاً بأن الجرح حدث بهذا السكين بالذات، فهل هناك ما يدل على أن الإصابة حدثت عفواً ولم تكن مفتعلة؟

فوثب السير ويلفريد من مقعده وصاح: حقاً يا سيدي القاضي، إذا كان في نية الزميل الفاضل أن يلقي الأسئلة ويجيب عليها بنفسه فلا ضرورة إذن لوجود الشاهد.

فقال مايرز في رضوخ: إنني أسحب سؤالي، شكراً لك أيها المفتش.

وغادر المفتش مكانه، وقال مايرز: سنستمع الآن إلى شهادة الدكتور ويات.

ودخل الدكتور ويات وحلف اليمين، وسأله مايرز: هل أنت الدكتور ويات؟

- نعم.

- وتعمل طبيباً شرعياً بمركز شرطة هامستيد؟

- نعم.

- دكتور ويات، هل تتفضل بأن تدلي إلى هيئة المحلفين بمعلوماتك عن وفاة الآنسة إميلي فرنش؟

- في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ١٤ أكتوبر رأيت جثة السيدة التي ثبت فيما بعد أنها الآنسة فرنش، وبفحص الجثة تبين أن الوفاة حدثت بضربة أصابت الرأس من أداة ثقيلة أرجّح أنها قضيب من الحديد، وكانت الوفاة فورية. وقد تبين لي من درجة حرارة الجثة ومن عوامل أخرى أن الوفاة حدثت منذ ساعة على الأقل وساعة ونصف على الأكثر، أي بين التاسعة والنصف والعاشرة مساء.

- هل حاولت الآنسة فرنش مقاومة المعتدي؟

- لم أجد أي دليل على أنها قاومت، بل على العكس، أرجّح أنها قد أُخذت على حين غرة.

وبذلك انتهى مايرز من استجوابه وعاد إلى مقعده، فنهض السير ويلفريد وسأل الطبيب: في أي مكان من الرأس كانت الإصابة؟ المفهوم أن المجني عليها تلقت ضربة واحدة على رأسها، أليس كذلك؟

- بلى، ضربة واحدة أصابت مؤخر الرأس؟

- في أي مكان من مؤخر الرأس؟ أرجو تجنب الاصطلاحات الطبية التي لا يفهمها الرجل العادي.

- كانت الإصابة خلف الإذن اليسرى.

- هل يدل ذلك على أن الجاني استخدم يده اليسرى؟ أو بمعنى آخر: هل يدل ذلك على أن الجاني أعسر أشول؟

- من المتعذر أن أقطع في ذلك برأي. لقد جاءت

الضربة من الخلف، ولا يمكن معرفة اليد التي ضربت أهي اليمنى أم اليسرى، وبالتالي لا أستطيع أن أحكم هل الرجل أعسر أم لا.

- نحن لا نعلم بعد أن الجاني رجل يا دكتور، ولكن ألا ترجح من مكان الضربة أن الضارب شخص أعسر؟

- ذلك محتمل ولكنه ليس مؤكداً.

- في اللحظة التي ضرب فيها الجاني، هل كان يمكن أن ينبثق الدم فوراً فيلوث اليد أو الذراع التي ضربت؟

- نعم، بغير شك.

- اليد والذراع فقط؟

- نعم، ولكن يحتمل أن يتجاوزهما.

- هذا حسن يا دكتور ويات. والآن أنبئني، هل تتطلب مثل هذه الضربة أن يكون الجاني قوياً جداً؟

- كلا، إن قتل إنسان بضربة في ذلك الموضع لا يتطلب قوة عظيمة.

- إذن ليس من الضروري أن يكون الجاني رجلاً، وأن امرأة كان بوسعها أن تضرب هذه الضربة؟

- نعم، دون شك.

- شكراً لك.

وعاد السير ويلفريد إلى مقعده، وتقدم مايرز وهو

يقول: شكراً لك يا دكتور ويات، والآن أرجو استدعاء جانيت ماكنزي.

دخلت جانيت ماكنزي قاعة الجلسة بقدم ثابتة، غير حافلة بمئات العيون التي تعلقت بوجهها. كانت امرأة اسكتلندية طويلة القامة صارمة الوجه، في نظراتها مزيج من القسوة والإحساس بالمرارة. وعندما وقع بصرها على ليونارد في قفص الاتهام رمقته شزراً، ومضت في طريقها إلى حيث أقسمت اليمين وجلست في مقعد الشهود.

وتقدم إليها مايرز وسألها: هل اسمك جانيت ماكنزي؟

- نعم، ذلك هو اسمي.

- هل كنت تعلمين مديرة لبيت الآنسة إميلي فرنش ومرافقة لها؟

- نعم.

- هل صحيح أن الآنسة فرنش كانت تحبك وتقدرك، وأن الصلة بينكما كانت صلة مودة وصداقة أكثر منها صلة بين سيدة وخادمتها؟

- لقد رعيتها وعنيت بها عشرين عاماً، وكانت تعرفني جيداً وتثق بي، وكثيراً ما منعتها من الإقدام على حماقات تسيء إليها.

كانت تتكلم ولا تحول عينيها عن مايرز، فقال القاضي: آنسة ماكنزي، أرجو أن توجهي الكلام إلى المحلفين.

وقال مايرز: هل يمكنك أن تحدثينا عن الآنسة فرنش؟

- كانت سيدة طيبة القلب إلى أبعد حد، وأكثر من اللازم في بعض الأحيان. شديدة الحماسة والاندفاع، تتصرف أحياناً بلا تعقل وتطرب بسهولة لكلمات الثناء وعبارات الإطراء.

- متى رأيت ليونارد فول لأول مرة؟

- أذكر أنه زارنا لأول مرة في نهاية أغسطس الماضي.

- هل تعددت زيارته بعد ذلك؟

- في البداية كان يزورنا كل أسبوع. كان يجلس إليها ويطريها ويلهج بالثناء عليها، ويبدي إعجابه بكل جديد ترتديه ويقول لها كم تبدو شابة وأنيقة.

فقاطعها مايرز قائلاً بسرعة: كفى، كفى. والآن أريدك أن تروي للمحلفين بأسلوبك أحداث اليوم الرابع عشر من أكتوبر الماضي.

- كان يوم جمعة، وهو يوم إجازتي، فقررت زيارة إحدى صديقاتي بشارع جلبنستر الذي لا يبعد أكثر من مسيرة ثلاث دقائق. وغادرت البيت في الساعة السابعة والنصف، وكنت قد وعدت صديقتي بأن أحضر لها باترون ثوب صنعته لنفسي وأعجبت به، فلما وصلت إلى بيتها اكتشفت أنني قد نسيت الباترون. وصحت عزيمتي على أن أعود إلى البيت بعد العشاء لأحضره لها، خاصة وأن الجو

كان صحواً والمسافة ليست بعيدة. وهكذا عدت إلى البيت بعد العشاء، وكانت الساعة وقتئذٍ التاسعة و٢٥ دقيقة. فتحت الباب الخارجي بمفتاح معي وقصدت إلى الدرج لأصعد إلى غرفتي، ومررت في طريقي بقاعة الاستقبال فسمعت صوت المتهم وهو يتحدث إلى الآنسة فرنش.

- هل أنت واثقة من أن الصوت الذي سمعته هو صوت المتهم؟

- إنني أعرف صوته جيداً، فقد زارنا كثيراً، وصوته الهادئ لطيف لا تخطئه الأذن. وكان الاثنان يتحدثان ويضحكان، ولما لم يكن لي شأن بهما فقد صعدت إلى غرفتي وتناولت الباترون وانطلقت به إلى صديقتي.

- أريدك أن تتحري الدقة التامة في ذكر الوقت، تقولين إنك عدت إلى بيت الآنسة فرنش في الساعة التاسعة و٢٥ دقيقة.

- نعم، لأنني غادرت بيت صديقتي في شارع جلينستر في الساعة التاسعة و٢٠ دقيقة تقريباً.

- كيف تأكدت من هذا الموعد يا آنسة ماكنزي؟

- من ساعة الحائط في بيت صديقتي، وقد ضبطت عليها ساعتي.

- تقولين إن المسافة بين بيت صديقتك وبيت الآنسة فرنش تستغرق ثلاث أو أربع دقائق سيراً على الأقدام، أي

أنك قد وصلت إلى بيت الآنسة فرنش في الساعة التاسعة و٢٥ دقيقة، ثم مكثت هناك نحو...

- مكثت هناك أقل من عشر دقائق لأنني نسيت المكان الذي وضعت فيه الباترون فقضيت بضع دقائق في البحث عنه.

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- عدت إلى بيت صديقتي في شارع جلينستر فسُرّت بالباترون أيما سرور، وبقيت معها حتى الساعة العاشرة وأربعين دقيقة. ثم عدت إلى بيت الآنسة فرنش وعرجت على قاعة الاستقبال لأرى ما إذا كانت سيدتي بحاجة إلى شيء قبل أن تأوي إلى فراشها.

- وماذا رأيت في قاعة الاستقبال؟

- رأيت المسكينة ممددة على الأرض ورأسها مهشم، ووجدت أدراج المكتب الذي يحتل أركان القاعة مفتوحة ومحتوياتها مبعثرة وآنية الزهر محطمة وستائر النافذة تتطاير مع الريح.

- وماذا فعلت؟

- اتصلت بالشرطة.

- هل تبادر إلى ذهنك أنه حادث سطو؟

فوثب السير ويلفريد من مقعده وصاح: إنني أعترض.

وجلس، فقال القاضي: أنا لا أسمح بالإجابة على هذا السؤال يا سيد مايرز، لم يكن ينبغي أن يلقى هذا السؤال على الشاهدة.

فقال مايرز: حسناً، سألقي عليك سؤالاً آخر يا آنسة ماكنزي. ماذا فعلت بعد أن اتصلت بالشرطة؟

- فتشت البيت.

- لماذا؟

- للبحث عما إذا كان هناك أحد.

- وهل وجدت أحداً؟

- كلا، ولم يكن هناك أثر للفوضى سوى في قاعة الاستقبال.

- ماذا تعرفين عن المتهم ليونارد فول؟

- أعلم أنه كان بحاجة إلى نقود.

- هل طلب نقوداً من الآنسة فرنش؟

- لقد كان أبرع من أن يفعل ذلك.

- هل كان يعاون الآنسة فرنش في بعض شؤونها، كالإيرادات والضرائب والاستثمارات مثلاً؟

- لا أظن أنها كانت بحاجة إلى معونته؟

- ماذا تعنين؟

- الآنسة فرنش كانت بارعة في المسائل المالية.

- هل كنت على علم بالترتيبات التي اتخذتها الآنسة فرنش بشأن توزيع ثروتها بعد وفاتها؟

- كانت تكتب وصاياها كما يتراءى لها، فهي غنية ولديها ثروة طائلة وليس لها أقارب، وكانت تقول: "يجب أن تذهب أموالي إلى حيث تكون أكثر فائدة". فتوصي بأموالها إلى ملجأ للأيتام، ثم تعود فتوصي بها إلى ملجأ للعجائز، ومرة ثالثة توصي بها لإنشاء مستشفى للقطط والكلاب... ثم ينتهي الأمر إلى نفس النتيجة. تختلف مع المسؤولين عن هذا الملجأ أو ذاك وتعود إلى البيت غاضبة فتمزق الوصية وتكتب سواها.

- هل تعرفين متى كتبت وصيتها الأخيرة؟

- كتبتها في ٨ أكتوبر الماضي. سمعتها تتحدث إلى محاميها السيد ستوكس وتطلب إليه الحضور لمقابلتها في اليوم التالي لأنها بسبيل وصية جديدة، وكان المتهم موجوداً معها في ذلك الوقت وسمعته يقول محتجاً: كلا، كلا... فأجابته الآنسة فرنش قائلة: ولكني أريد ذلك يا فتاي العزيز، أريد ذلك. تذكّر اليوم الذي كادت فيه إحدى السيارات أن تدهمني، إن ذلك يمكن أن يحدث في أي وقت.

* * *

الفصل السادس

وبينما كانت جانيت ماكنزي تدلي بشهادتها كتب ليونارد فول بضعة سطور على ورقة وأومأ إلى السيد مايهيو، فتناول هذا الأخير الورقة وحملها إلى السير ويلفريد.

وواصل مايرز استجواب الشاهدة فقال: هل تعلمين متى كتبت سيدتك وصيتها الأخيرة؟

- كتبتها في الربيع الماضي.

- هل كنت تعلمين يا آنسة ماكنزي أن ليونارد فول رجل متزوج؟

- كلا، وكذلك سيدتي لم تكن تعلم.

فصاح السير ويلفريد: أعترض، لأن كل ما كانت الآنسة فرنش تعلمه أو لا تعلمه هو مجرد تخمين من تخمينات جانيت ماكنزي.

فقال مايرز: إذن لنضع السؤال في هذه الصيغة: هل ثمة أسباب أو حقائق تحملك على الاعتقاد بأن الآنسة فرنش

كانت تجهل أن ليونارد فول متزوج؟

- نعم، توجد الكتب التي طلبتها الآنسة فرنش من إحدى المكتبات، ومنها كتاب «حياة البارونة بورديت كوتس» وكتاب آخر عن دزرائيللي وزوجته، وكلاهما يتحدثان عن نساء تزوجن رجالاً أصغر منهن سناً. لقد كنت أعلم ما يدور بخلدها.

قال القاضي: أظن أنه ليس بوسعنا التسليم بما قالته الشاهدة في التو واللحظة.

فصاحت جانيت: لماذا؟

فقال القاضي دون أن يعيرها التفاتاً: أيها السيدات والسادة أعضاء هيئة المحلفين، إن من الممكن أن تقرأ إحدى السيدات كتاباً عن حياة دزرائيللي دون أن يكون في نيتها الاقتران برجل أصغر سناً منها.

فقال مايرز للشاهدة: هل اتفق مرة أن تحدث السيد فول عن زوجته أو ذكرها في معرض حديثه؟

- كلا.

- شكراً لك.

وعاد مايرز إلى مقعده وترك الشاهدة لممثل الدفاع. فقال لها السير ويلفريد في رفق: لا شك أننا جميعاً نقدر وفاءك وإخلاصك لسيدتك.

- كنت شديدة الإخلاص لها.

- وهل كان تأثيرك عليها عظيماً؟

- ربما.

- تضمنت الوصية التي كتبتها الآنسة فرنش في الربيع، أي الوصية قبل الأخيرة، أنها تترك كل ثروتها لك، فهل كنت تعلمين ذلك؟

- أذكر أنها قالت لي ذات يوم: "إن جميع القائمين على المؤسسات الخيرية لصوص، فهم يبعثرون النقود هنا وهناك ولا يعطون شيئاً لأصحاب الحق فيها، ولذلك تركت كل ثروتي لك يا جانيت لكي تنفقيها في الوجوه التي ترينها أفضل".

- كان ذلك دليلاً على ثقتها العظيمة بك، ولكنها في وصيتها الأخيرة لم تمنحك سوى راتب سنوي ضئيل بينما أوصت بكل ثروتها تقريباً للمتهم ليونارد فول.

فصاحت جانيت: سيكون ظلماً فادحاً أن يأخذ بنساً واحداً من هذه الثروة.

- قلت إن الآنسة فرنش لم يكن لها معارف أو أصدقاء، فلم ذلك؟

- لأنها لم تكن تخرج كثيراً.

- لقد غضبت جداً عندما توثقت أواصر الصداقة بين الآنسة فرنش وليونارد فول، أليس كذلك؟

- بلى، فقد ضايقني أن يفرض أحد نفسه على سيدتي العزيزة فرضاً.

- ولكنك اعترفت بأن السيد فول لم يفرض نفسه عليها، فهل يمكن أن يكون السبب أنك أبيت أن يحل محلك شخص آخر يبسط نفوذه على الآنسة فرنش؟

- لقد خيل إليّ أنها تعتمد عليه أكثر مما ينبغي وأن اعتمادها عليه ليس مأمون العواقب، فقد كنت أفكر في مصلحتها فحسب.

- إذن فقد كان للمتهم تأثير كبير على الآنسة فرنش وكانت هي تكنّ له عطفاً شديداً؟

- ذلك ما انتهى إليه الأمر بينهما.

- ولو كان المتهم قد طلب منها نقوداً لما ترددت في تلبية طلبه؟

- أنا لم أقل ذلك.

- ولكنه لم يأخذ منها أية نقود؟

- ربما ليس لأنه لم يحاول.

- لنعد إلى مساء يوم ١٤ أكتوبر، قلت إنك سمعت الآنسة فرنش والمتهم يتحدثان، فماذا سمعتها يقولان؟

- لم أسمع شيئاً مما قالاه.

- سمعت أصواتاً وحسب؟

- سمعتهما يضحكان.

- سمعت صوت رجل وصوت امرأة، وكانا يضحكان. أليس كذلك؟

- بلى.

- وماذا حملك على الاعتقاد بأن صوت الرجل الذي سمعته كان صوت ليونارد فول؟

- إنني أعرف صوته جيداً.

- كان باب قاعة الاستقبال مغلقاً، أليس كذلك؟

- بلى، كان مغلقاً.

- وسمعت تمتمة أصوات، وتقسمين أن أحد هذه الأصوات كان صوت ليونارد فول. أظن أن هذا إجحاف وتحامل من جانبك.

- أنا واثقة من أنه كان صوت ليونارد فول.

- لقد فهمت من روايتك لأحداث تلك الليلة أنك مررت بباب قاعة الاستقبال مرتين، مرة حين صعدت إلى غرفتك ومرة أخرى حين انصرفت.

- نعم.

- ألم تكوني في عجلة من أمرك للبحث عن الباترون والعودة به إلى صديقتك؟

- كلا، لم أكن في عجلة من أمري، كان لدي المساء بطوله.

- إنما أريد أن أقول إنك كنت مسرعة حين مررت بباب قاعة الاستقبال ذهاباً وإياباً.

- كان وقت مروري بالباب كافياً لأن أسمع ما سمعت.

- لا شك أنك تريدين أن يعتقد المحلفون أنك كنت تسترقين السمع وتتنصتين على الأبواب؟

- كلا، لم أكن أسترق السمع أو أتنصت على الأبواب. إنني أقضي وقتي فيما هو أفضل من ذلك.

- هل أنت مشتركة في التأمينات الصحية؟

- نعم، وأدفع قيمة الاشتراك أربعة شلنات أسبوعياً، وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى امرأة عاملة.

- نعم، إنه مبلغ كبير والشكوى منه عامة. ألم تطالبي التأمينات الصحية مؤخراً بأن تزودك بجهاز للسمع؟

- لقد طلبت هذا الجهاز منذ ستة شهور ولم أحصل عليه حتى الآن.

- أليس معنى ذلك أنك ضعيفة السمع؟

ثم استطرد قائلاً بصوت خافت: إذا قلت لك يا آنسة ماكنزي إنه كان مستحيلاً عليك أن تتبيني الأصوات الصادرة من وراء باب مغلق فبماذا تجيبين؟

ثم قال لها بصوت مرتفع: هل في استطاعتك أن تعيدي ما قلته لك الآن؟

- أنا لم أسمع كلمة واحدة مما قلت.

- نعم، أنت لم تسمعي ما قلته لك رغم أنني أقف منك على بعد بضعة أقدام، ومع ذلك فأنت تزعمين أنك تبينت صوت ليونارد فول من بين صوتين كان صاحباهما يتحدثان نبرات عادية وراء باب مغلق مررت به مرتين مروراً عابراً.

- كان صوته، أؤكد لك أنه كان صوته... وإلا فصوت من كان؟

- تماماً، صوت مَن كان؟ هذه هي المسألة. والآن حدثيني يا آنسة ماكنزي، هل كانت الآنسة فرنش تشعر بالوحدة في بعض الأمسيات؟

- لا، كانت لديها دائماً كتب تقرأها.

- وهل كانت تسمع الراديو كذلك؟

- نعم، كانت تسمع الراديو أحياناً.

- هل كانت مولعة ببرنامج معين؟ أو بالتمثيليات الإذاعية الجيدة؟

- نعم، كانت تحب التمثيليات الجيدة.

- ألا يحتمل عندما عدت إلى البيت ومررت بباب قاعة الاستقبال أن يكون ما سمعتِه هو حديث في الراديو بين رجل وامرأة تتخلله ضحكات؟ لقد أذيعت في تلك الليلة تمثيلية إذاعية اسمها «وثبة عاشق».

- إن ما سمعته لم يكن حديثاً في الراديو.

- ولمَ لا؟

- لأن جهاز الراديو لم يكن موجوداً بالبيت في ذلك الأسبوع، فقد أرسلته الآنسة فرنش لإصلاحه.

دُهش السير ويلفريد وصمت لحظة، ثم قال: لا بد أنك انزعجت كثيراً يا آنسة ماكنزي عندما علمت أن الآنسة فرنش تنوي الاقتران بالمتهم.

- نعم، فقد كان ذلك عملاً جنونياً.

- ولعل من بواعث انزعاجك أنها لو اقترنت بالمتهم فمن المحتمل أن يقنعها بطردك.

- ما كانت الآنسة فرنش لتفعل ذلك بعد أن خدمتها كل هذه السنين.

- إن الإنسان لا يعرف أبداً ما قد يفعله الآخرون، خاصة إذا كانوا تحت تأثير قوي من شخص ما.

- لا شك أنه كان سيستغل تأثيره عليها ويبذل قصارى جهده لحملها على التخلص مني.

- وإذن كان من الطبيعي أن تشعري بأن المتهم يمثل خطراً حقيقياً على مركزك وأسلوب حياتك في ذلك الحين؟

- لقد كان بوسعه أن يغير كل شيء.

- نعم، وذلك أمر مزعج، فلا عجب إذا كنت قد

أحسست بحقد شديد على المتهم.

وبهذه العبارة أنهى السير ويلفريد استجوابه للشاهدة وعاد إلى مقعده، فنهض مايرز وقال يحدث الشاهدة: لقد بذل صديقي ممثل الدفاع جهداً شاقاً لكي يستخلص منكِ اعترافاً بأنك تحقدين على المتهم.

فقاطعه السير ويلفريد دون أن ينهض: لقد اعترفت دون عناء.

ولكن مايرز تجاهل عبارة خصمه وقال يحدث جانيت ماكنزي: هل كنت تعتقدين حقاً أن سيدتك قد تقترن بالمتهم؟

- نعم، كنت أعتقد ذلك.

- وهل اعتقدت بأن تأثير المتهم على سيدتك من القوة بحيث كان بوسعه أن يقنعها بطردك؟

- وددت لو أنه حاول، إنه ما كان لينجح.

- هل اتفق أن أبدى المتهم نفوره منك بطريقة ما؟

- كلا، لقد كان مهذباً.

- سؤال أخير. قلت إنك عرفت صوت ليونارد فول من وراء الباب المغلق، فهل لك أن تخبري هيئة المحلفين كيف عرفته؟

- يستطيع الإنسان أن يعرف صوت شخص ما دون أن يتبين كلامه.

- شكراً لك يا آنسة ماكنزي.

وبذلك انتهت شهادة جانيت ماكنزي وغادرت المكان.

قال مايرز: سنستمع الآن إلى أقوال توماس كليج.

ودخل كليج من نفس الباب الذي انصرفت منه جانيت ماكنزي، وتقدم من مقعد الشهود وأقسم اليمين.

سأله مايرز هل أنت توماس كليج؟

- نعم يا سيدي.

- هل تعمل مساعداً في معامل الطب الشرعي باسكتلنديارد؟

- نعم.

- هل تعرف هذه السترة؟

وقدم حاجب المحكمة السترة إلى الشاهد فأجاب: نعم، جاءني بها المفتش هيرني ففحصتها بحثاً عن آثار دماء.

- وماذا كانت نتيجة الفحص؟

- كانت الأكمام قد غسلت حديثاً، ولم تكن مغسولة بشكل جيد. وقد استطعت ببعض الاختبارات أن أتبين وجود آثار دماء على طرف الأكمام.

- هل هذه الدماء من فصيلة معينة؟

- نعم، من فصيلة «و».

- هل قدمت لك عينة أخرى من الدم لفحصها؟

- نعم، قُدّمت لي عينة من دم الآنسة إميلي فرنش ووجدت أنها من نفس الفصيلة.

وعاد مايرز إلى مقعده، ونهض السير ويلفريد وسأل الشاهد: هل قلت إنك وجدت آثار الدماء على كمي السترة؟

- نعم.

- أعتقد أن آثار الدم كانت على الكم الأيسر فقط.

فأخرج كليج من جيبه دفتر مذكرات وتصفحه وقال: نعم، أنا آسف، لقد أخطأت. كانت آثار الدم على الكم الأيسر فقط.

- هل تعلم أن المتهم قال لرجال الشرطة إنه جرح يده وأن الدم قد لوث السترة؟

- نعم.

فأخرج السير ويلفريد ورقة من حقيبته وقال: معي هنا شهادة تثبت أن ليونارد فول كان يتبرع بدمه لمستشفى شمال لندن وأن دمه من الفصيلة «و». وهي نفس الفصيلة، أليس كذلك؟

- بلى.

- وإذن فمن المحتمل أن يكون الدم الذي لوث الكم قد جاء نتيجة لإصابة يد المتهم؟

- نعم.

وعاد السير ويلفريد إلى مقعده فنهض مايرز وقال يحدث الشاهد: هل الفصيلة «و» أكثر شيوعاً من غيرها؟

- نعم، إن دم ٤٢ في المئة من الناس من هذه الفصيلة.

وانتهت بذلك شهادة كليج فالتفت مايرز إلى الحاجب وقال: ادعُ رومين هايلجر.

* * *

الفصل السابع

ما أن دخلت رومين هايلجر قاعة الجلسة حتى ساد صمت عميق لم يستمر سوى بضع ثوان، ثم امتلأت القاعة باللغظ ومال الحاضرون بعضهم على بعض يتهامسون، بينما سارت المرأة مرفوعة الرأس لا تنظر يمنة ولا يسرة حتى بلغت مقعد الشهود.

صاح الحاجب: "سكوت"، فخف اللغط بالتدريج حتى تلاشى تماماً.

وبصوت واضح النبرات تخالطه رطانة أجنبية أقسمت رومين اليمين وشرع مايرز في استجوابها: هل اسمك رومين هايلجر؟

- نعم.

- هل كنت تعاشرين المتهم ليونارد فول كزوجة؟

- نعم.

- هل أنت زوجة فعلاً؟

- بل كنت طرفاً في صيغة زواج كان هو طرفها الثاني،

كان زوجي الأول على قيد الحياة وما زال حياً، فزواجي من المتهم...

وبحثت عن الكلمة الملائمة فلم تسعفها قريحتها، وخف مايرز لنجدتها. قال: باطل.

- نعم.

وهنا وثب السير ويلفريد من مقعده وصاح: سيدي القاضي، إنني أعترض على شهادة رومين وأعترض على دعوتها للشهادة، إن زواجها من المتهم حقيقة لا يمكن إنكارها وليس ثمة أي دليل على الزواج الأول الذي تزعمه.

فقال مايرز: لو لم يتخلَّ صديقي ممثل الدفاع عن صبره وسعة صدره وانتظر سؤالي التالي لوفر علينا عناء هذه المقاطعات.

ثم التفت إلى الشاهدة وقال: يا سيدة هايلجر، هل هذه وثيقة زواجك من المدعو أوتو هايلجر في ١٨ أبريل سنة ١٩٤٦ بمدينة لايبزج؟

وتناول الحاجب الوثيقة من ممثل الاتهام وقدمها إلى الشاهدة، فألقت عليها هذه نظرة سريعة وأجابت: نعم.

قال القاضي: أريد الاطلاع على هذه الوثيقة.

فحمل الحاجب الوثيقة إلى كاتب الجلسة وقدمها هذا إلى القاضي الذي تناولها وقال: أظن أن هذه ستكون الدليل أو المستند رقم ٤؟

قال مايرز: نعم يا سيدي القاضي.

فقال القاضي بعد أن فحص الوثيقة: أعتقد يا سير ويلفريد أنه ليس ثمة ما يحول دون قبول السيدة هايلجر كشاهدة.

ورد الوثيقة إلى الكاتب الذي ردها إلى الحاجب، فوضعها هذا على المائدة بين سائر الأدوات والأدلة. وقال القاضي: على كل حال، هل أنت على استعداد لإدلاء الشهادة ضد الرجل الذي كنت تدعينه زوجك يا سيدة هايلجر؟

- نعم.

وثب ليونارد من مقعده وصاح: رومين! ماذا جاء بك إلى هنا؟

فقال القاضي موجهاً كلامه إلى المتهم: أريد السكون يا سيد فول. سوف تتاح لك الفرصة بعد قليل للدفاع عن نفسك.

فجلس ليونارد وهو يعض على شفتيه، وقال مايرز محدثاً الشاهدة: أرجو أن تروي بأسلوبك حقيقة ما حدث في مساء يوم ١٤ أكتوبر الماضي.

- كنت في البيت طوال ذلك المساء.

- وليونارد فول؟

- كان قد خرج حوالي الساعة السابعة والنصف.

- ومتى عاد؟

- عاد في الساعة العاشرة وعشر دقائق.

فنهض ليونارد من مقعده وصاح: هذا كذب، هذا كذب! كانت الساعة التاسعة والدقيقة ٢٥ عندما عدت إلى البيت.

وهنا أسرع إليه مايهيو وطلب إليه همساً أن يلزم الهدوء والصمت، فجلس المتهم موجهاً كلامه إلى الشاهدة: من الذي طلب إليك أن تقولي ذلك؟ حقاً إنني لا أكاد أفهم شيئاً.

قال ذلك ودفن وجهه بين كفيه. ثم قال مايرز للشاهدة: تقولين إن ليونارد فول قد عاد في الساعة العاشرة وعشر دقائق، فماذا حدث بعد ذلك؟

- كان لاهث الأنفاس شديد الانفعال، فخلع السترة وفحصها ثم طلب إليّ أن أغسل الكمين لأن عليهما آثار دم.

- هل قال شيئاً عن هذا الدم؟

- قال: يا إلهي! يوجد دم على الأكمام.

- وماذا قلت أنت؟

- سألته: ماذا فعلت؟

- وبماذا أجاب؟

- أجاب: لقد قتلتها.

فوثب ليونارد وصاح وقد ثارت ثائرته: كذب... هذا كذب!

ولكن حارسه أعاده إلى مقعده على الفور. وقال القاضي: أرجو أن تتمالك نفسك يا سيد فول.

فصاح ليونارد: ليس فيما قالته كلمة واحدة صادقة.

فالتفت القاضي إلى الشاهدة وسألها: هل تدركين معنى ما قلت يا سيدة هايلجر؟

فأجابت: ألا يجب أن أقول الصدق؟

فقال مايرز: قال لك المتهم: "لقد قتلتها"، فهل عرفت من كان يعني؟

- نعم عرفت، كان يعني المرأة العجوز التي كثيراً ما ذهب لزيارتها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- قال لي إنني إذا سُئلت فيجب أن أقول إنه عاد إلى البيت في الساعة التاسعة والنصف وقضى المساء كله في البيت، فسألته: هل يعلم الشرطة أنك قتلتها؟ وأجاب: كلا، سيعتقد الشرطة أن لصوصاً سطوا عليها، والمهم أن تذكري أنني كنت في البيت معك في الساعة التاسعة والنصف.

- وهل قام الشرطة باستجوابك بعد ذلك؟

- نعم.

- هل سألوك عن ليونارد وهل كان معك في البيت في الساعة التاسعة والنصف؟

- نعم.

- وبماذا أجبت؟

- قلت إنه كان معي في ذلك الوقت.

- ولكنك تقولين الآن غير ذلك، فلماذا؟

فقالت رومين بحدة وحماسة: لأنها جريمة قتل، ولا أستطيع أن أكذب لأنقذه. إنني أعترف بجميله ولا أنكر فضله عليّ، فقد تزوجني وجاء بي إلى هذه البلاد، وكنت دائماً أفعل ما يطلبه مني اعترافاً بفضله وصنيعه.

- ولأنك كنت تحبينه؟

- كلا، أنا لم أحبه قط.

فصاح ليونارد وهو لا يكاد يصدق أذنيه: رومين!

ولكن المرأة لم تعره التفاتاً وقالت مرة أخرى: نعم، لم أحبه قط.

قال مايرز: كنت تعرفين المتهم لأنه جاء بك إلى هذه البلاد، فطلب إليك أن تزعمي أنه كان معك وقت ارتكاب الجريمة ووافقت، ولكنك شعرت بعد ذلك أن ما طلبه منك لا يتفق مع الأمانة والصدق؟

- ذلك ما حدث بالضبط.

سأل مايرز: ولماذا شعرت بأن ما طلبه منك لا يتفق مع الأمانة والصدق؟

قالت الشاهدة: كانت جريمة قتل، ولا أستطيع أن أقف أمام المحكمة لأقول إنه كان معي وقت ارتكابها، لا أستطيع، لا أستطيع.

- وماذا فعلت؟

- لم أكن أدري ماذا يجب أن أفعل، فأنا أعرف بلادكم وأخشى الشرطة، ولذلك بعثت برسالة إلى سفير بلادي قلت له فيها إنني لا أريد الاستمرار في الكذب وأريد أن أقول الحقيقة.

- والحقيقة هي أن ليونارد فول عاد إلى البيت في تلك الليلة في الساعة العاشرة وعشر دقائق وأكمامه ملوثة بالدم وقال لك "لقد قتلتها". أتقسمين على أن هذه هي الحقيقة؟

- نعم، أقسم.

جلس مايرز ونهض السير ويلفريد لاستجواب شاهدة الإثبات. سألها: عندما تم ذلك الزواج بين المتهم وبينك، هل كان يعلم أن زوجك الأول على قيد الحياة؟

- كلا.

- أي أنه تصرف بحسن نية؟

- نعم.

- وكنت تشعرين نحوه بالامتنان وعرفان الجميل؟

- نعم.

- وها أنت تعبّرين عن امتنانك وعرفانك للجميل

بالقدوم إلى هنا والتطوع بالشهادة ضده.

- كان يجب أن أقول الصدق.

فصرخ السير ويلفريد في وجهها بوحشية: وهل ما قلته هو الصدق؟

- نعم.

- إن ليونارد فول كان معك بالبيت في الساعة التاسعة والنصف من مساء يوم ١٤ أكتوبر، والقصة التي رويتها الآن أكذوبة من نسج خيالك، ولا بد أنك تحقدين على المتهم لسبب ما فتفتق ذهنك عن هذه القصة للتنفيس عما في صدرك.

- لا.

- هل تعلمين أنك أقسمت اليمين؟

- نعم.

- إذن دعيني أحذرك يا سيدة هايلجر. إذا كان أمر المتهم لا يهمك فلا أقل من أن تحسبي حساباً لما قد يصيبك، إن عقوبة الحنث باليمين شديدة صارمة.

فوثب مايرز من مقعده صائحاً: حقاً يا سيدي القاضي إنني لا أعلم ما إذا كان الغرض من هذه الثورات المسرحية هو التأثير على المحلفين، ولكني واثق من أنه لا يوجد بتاتاً ما يوحي بأن الشاهدة لم تقل إلا الصدق.

فقال القاضي: مهلاً يا سيد مايرز، نحن بصدد جريمة عقوبتها الإعدام، فيجب أن تهيأ الفرصة للدفاع في حدود المعقول. تكلم يا سير ويلفريد.

قال السير ويلفريد للشاهدة: هل قلت إنه كانت هناك آثار دماء على كمّي السترة؟

- نعم.

- على كلا الكمين؟

- نعم، ذلك ما قاله لي ليونارد.

- لا يا سيدة هايلجر، أنت قلت: وطلب إليّ أن أغسل الكمّين لأن عليهما آثار دم.

فقال القاضي: ذلك تماماً ما سجلته في مذكراتي يا سير ويلفريد.

- شكراً لك يا سيدي القاضي، أنت قلت يا سيدة هايلجر أنك غسلت الكمّين؟

قال مايرز: أرى أن صديقي ممثل الدفاع لم يتحرَّ الدقة هذه المرة، فإن الشاهدة لم تذكر قط أنها غسلت الكمّين.

فقال السير ويلفريد: لعل صديقي على حق. حسناً، هل غسلت الكمّين يا سيدة هايلجر؟

أجابت رومين: تذكرت الآن، لقد غسلت كماً واحداً.

- أشكرك، وأرجو ألا تكون ذاكرتك قد خانتك في

أجزاء أخرى من قصتك. هل قلت في روايتك الأولى للشرطة إن الدم الذي لوث السترة كان من جرح أصاب المتهم وهو يقطع شريحة اللحم؟

- نعم، قلت ذلك، وهو غير الحقيقة.

- لماذا كذبت؟

- لقد قلت ما طلب إليّ ليونارد أن أقوله.

- وهل أطعته إلى حد إبراز السكين التي قطع به شريحة اللحم؟

- عندما وجد ليونارد أن ثوبه ملوث بالدم جرح يده عمداً لكي يوحي بأن الدم دمه.

نهض ليونارد من مقعده وصرخ: لم أفعل ذلك قط.

فصاح به السير ويلفريد: اصمت، أرجوك أن تصمت.

ثم تحول إلى رومين: أنت تعترفين إذن بأن روايتك الأولى للشرطة كانت كلها كذباً؟ يبدو أنك بارعة في الكذب.

- لقد لقنني ليونارد ما يجب أن أقوله.

- المسألة هي: هل كذبت في روايتك الأولى أم أنك تكذبين الآن؟ وإذا كانت جريمة القتل قد راعتك وأزعجتك حقاً، فلماذا لم تذكري الحقيقة لرجال الشرطة عندما استجوبوك؟

- كنت خائفة من ليونارد.

فصاح السير ويلفريد وهو يشير بإصبعه نحو ليونارد الذي كان في حالة يرثى لها: كنت خائفة من ليونارد فول، من هذا الرجل التعس الذي حطمتِ قلبه وروحه في التو واللحظة؟ أظن أن المحلفين سيعرفون أيَّكما يصدّقون.

وجلس. فقال مايرز: رومين هايلجر، إنني أسألك مرة أخرى، هل الشهادة التي أدليت بها هي الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق؟

– نعم.

فقال مايرز: سيدي القاضي، إن الاتهام يكتفي بهذا القدر من أقوال الشاهدة.

وجلس. وغادرت رومين مكانها ومرت بالمتهم وهي في طريقها إلى باب القاعة فصاح بها: رومين.

فصاح الحاجب: سكون!

وقال القاضي: هل لديك ما تقوله يا سير ويلفريد؟

فنهض ممثل الدفاع وقال: سيدي القاضي، سادتي أعضاء هيئة المحلفين. لن أزعم أنه لا وجه لإقامة الدعوى ضد موكلي، فهناك قرائن، وقرائن قوية. ولقد سمعتم رجل الشرطة وغيره من الفنيين، فكانت أقوالهم تتسم بالنزاهة وعدم التحيز مما يقضي به واجبهم، وليس عندي ما أقوله عن هؤلاء، ولكنكم سمعتم إلى جانب ذلك أقوال جانيت ماكنزي والسيدة التي تدعو نفسها رومين فول. فهل تعتقدون

أن أقوالهما مغرضة وليست فوق الشبهات؟ لقد حرمت جانيت ماكنزي من الميراث وفقدت سيطرتها ونفوذها على سيدتها بسبب هذا المتهم التعس الذي لم يسع قط إلى اغتصاب مكانتها. أما رومين فول هايلجر، فإنها خدعته واستدرجته للزواج بها وأخفت عنه أنها متزوجة فعلاً. إن في عنق هذه المرأة ديناً له لن تستطيع أبد الدهر الوفاء به، لقد استغلته لإنقاذها من الاضطهاد السياسي الذي كانت تعانيه ثم اعترفت بعد أن استنفذت أغراضها منه بأنها لا تحبه. إنني أناشدكم الحذر كل الحذر عند تقييم شهادتها، شهادة امرأة نشأت ودرجت على المبدأ القائل بأن الكذب سلاح يمكن استخدامه لتحقيق الأغراض وبأن الغاية تبرر الوسيلة.

ثم قال: أيها السادة، سأستجوب الآن المتهم ليونارد فول.

فغادر ليونارد فول قفص الاتهام إلى مقعد الشهود وتبعه حارسه، وهناك أقسم اليمين كأي شاهد ممن سبقوه.

وبدأ السير ويلفريد استجوابه، قال: السيد فول، لقد سمعنا قصة الصداقة بينك وبين الآنسة إميلي فرنش، وأريدك الآن أن تذكر لنا: هل كنت تتردد عليها كثيراً؟

- نعم.

- لماذا؟

- كانت لطيفة معي، وذكرتني بالعمة بتسي فأحببتها.

- تعني عمتك العجوز التي عنيت بك وأشرفت على تربيتك؟

- نعم، كنت أحبها من كل قلبي، وقد ذكرتني الآنسة فرنش بها.

- لا بد أنك سمعت جانيت ماكنزي حين قالت إن الآنسة فرنش كانت تعتقد أنك أعزب، وكانت لديها نية الاقتران بك. فهل هذا صحيح؟

- كلا طبعاً، هذه فكرة سخيفة.

- هل كانت الآنسة فرنش تعلم أنك متزوج؟

- نعم.

- إذن لم تكن هناك أية فكرة عن زواج بينكما؟

- كلا طبعاً. لقد قلت لك إنها كانت تعاملني كابن أخ عزيز، كما تعامل الأم ابنها.

- ولهذا كنت تفعل من أجلها كل ما تستطيع؟

فقال ليونارد ببساطة: كنت أحبها كثيراً.

- أرجو أن تروي للمحلفين بأسلوبك الخاص أحداث ليلة ١٤ أكتوبر.

- الواقع أنني عثرت في السوق على فرشاة للقطط من نوع جديد وخطر لي أنها قد تعجب الآنسة فرنش فاشتريتها، ولم يكن لدي ما يشغلني في ذلك المساء فذهبت إليها.

- كم كانت الساعة وقتئذٍ؟

- لقد وصلت إلى بيتها قبيل الساعة الثامنة، وأعطيتها فرشاة القطط فسرت بها، وقمنا بتجربة الفرشاة على إحدى القطط ونجحت التجربة نجاحاً عظيماً. ثم لعبنا الورق معاً لأنها كانت شغوفة باللعب، وانصرفت بعد ذلك.

- نعم، ولكن هل...

وهنا قاطعه القاضي قائلاً: إنني لم أفهم هذا الجزء من أقوال الشاهد يا سير ويلفريد، ما هي فرشاة القطط؟

فأجاب ليونارد: إنها فرشاة لتنظيف فرو القطط.

- آه.

- إنها مشط وفرشاة مجتمعان، وقد كان لدى الآنسة فرنش ثماني قطط رائحتها تملأ البيت فخطر لي أن هذه الفرشاة قد تفيد.

فسأله السير ويلفريد: هل رأيت جانيت ماكنزي في تلك الليلة؟

- كلا، والآنسة فرنش هي التي فتحت لي الباب بنفسها.

- هل كنت تعلم أن جانيت ماكنزي ليست بالبيت؟

- لم أفكر في أمرها.

- ومتى غادرت بيت الآنسة فرنش؟

- قبيل الساعة التاسعة، وعدت إلى بيتي سيراً على قدمي.

- كم استغرقت المسافة إلى بيتك؟

- بين ٢٤ دقيقة ونصف ساعة.

- أي أنك وصلت إلى بيتك في...

- وصلت إلى بيتي في الساعة التاسعة و ٢٥ دقيقة.

- وزوجتك، سأدعوها كذلك، هل كانت في البيت وقتئذٍ؟

- طبعاً كانت في البيت، لا بد... لا بد أنه قد أصابها خبل فإنني...

فقاطعه السير ويلفريد: دع ذلك الآن وامض في سرد قصتك. هل غسلت أكمام ثوبك حالما وصلت؟

- كلا طبعاً.

- من غسلها إذن؟

- غسلتها رومين في صباح اليوم التالي. قالت إنها ملوثة بالدم من أثر الجرح الذي أصاب يدي.

- الجرح الذي أصاب يدك؟

- نعم، هنا... أثره لا يزال واضحاً وفي استطاعتك أن تراه.

وبسط يده وأشار إلى أثر الجرح، فسأله السير ويلفريد:

متى علمت بأمر الجريمة لأول مرة؟

- قرأت نبأها في صحف المساء في اليوم التالي.

- وماذا كان شعورك؟

- ذهلت ولم أصدق ما قرأت، وكان حزني وانزعاجي شديدين. ولم يخطر ببالي أن الجريمة قد ارتكبت لسبب غير السطو كما قالت الصحف.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- قرأت في الصحف أن الشرطة تطلب مقابلتي، فذهبت إلى إدارة الشرطة.

- ذهبت إلى إدارة الشرطة وأدليت بأقوالك؟

- نعم.

- ألم تكن متوتر الأعصاب أو متردداً في مواجهة الشرطة؟

- لا طبعاً، كنت متشوقاً ومستعداً لمعاونة الشرطة بكل وسيلة.

- هل حدث في أي وقت أنك أخذت نقوداً من الآنسة فرنش؟

- لا.

- هل كنت تعلم أنها كتبت وصية لمصلحتك أوصت لك فيها بكل ثروتها؟

- قالت لي ذات يوم إنها اتصلت بمحاميها لأنها تنوي كتابة وصية جديدة، فسألتها هل تعودت تغيير وصاياها بين وقت وآخر فأجابت بالإيجاب.

- هل كنت تعرف مضمون الوصية الجديدة التي اعتزمت كتابتها؟

- أقسم أنني لم أكن أعرف.

- هل قالت مرة تلميحاً أو تصريحاً أنها ربما توصي لك بشيء من ثروتها؟

- لا.

- لا شك أنك سمعت الأقوال التي أدلت بها زوجتك، أو المرأة التي كنت تعتبرها زوجتك؟

- نعم سمعتها، ولا أفهم كيف... لا أفهم لماذا...

فقاطعه السير ويلفريد قائلاً: أدرك مدى حيرتك وانزعاجك يا سيد فول، ولكني أطلب إليك أن تدع انفعالاتك جانباً وتجيب ببساطة ووضوح على السؤال التالي: هل ما قالته الشاهدة صحيح أو غير صحيح؟

- طبعاً غير صحيح.

- هل وصلت إلى بيتك في الساعة التاسعة والنصف وتناولت العشاء مع زوجتك؟

- نعم.

- هل غادرت البيت بعد ذلك؟

- لا.

- سألقي عليك سؤالاً أخيراً يا سيد فول: هل قتلت الآنسة إميلي فرنش؟

- كلا، لم أقتلها.

وبذلك أنهى السير ويلفريد استجوابه للمتهم وعاد إلى مقعده.

* * *

الفصل الثامن

كان استجواب المتهم هو آخر مراحل القضية. وكان من حق ممثل الاتهام، ما دام المتهم أدلى بأقواله كشاهد، أن يتصدى بدوره لمناقشته. وهكذا نهض مايرز وشرع في استجواب ليونارد فول.

سأله: هل حاولت مرة أن تبتز نقود أحد؟

فأجابه المتهم دون تردد: كلا.

- متى علمت، بعد أن تعرفت بالآنسة فرنش، أنها على جانب عظيم من الثراء؟

- عندما ذهبت لزيارتها أول مرة لم أكن أعرف أنها غنية.

- ولكنك قررت بعد أن عرفت ذلك أن توثق صلتك بها؟

- أعلم أن الأمر في ظاهره يبدو كذلك، ولكني في الواقع كنت أحبها ولم يكن للنقود اعتبار في شعوري نحوها.

- هل كنت ستستمر في زيارتها لو كانت فقيرة؟

- طبعاً كنت سأستمر في زيارتها.

- هل ظروفك المالية سيئة؟

- أنت تعلم أن ظروفي المالية سيئة.

- أرجوك أن تجيب بنعم أو لا.

- نعم.

- كم راتبك؟

- الواقع أنني في الوقت الحاضر لا عمل لي، كنت بلا عمل منذ بعض الوقت.

- هل فُصلت من آخر وظيفة كنت تشغلها؟

- كلا، لم أفصل، ولكني تركتها طواعية.

- كم كان لديك من النقود في البنك عندما أُلقي القبض عليك؟

- لا أكثر من بضعة جنيهات، ولكني كنت أنتظر بعض النقود بعد أسبوع أو أسبوعين.

- كم كنت تنتظر؟

- لم أكن أنتظر الكثير.

- كان مركزك المالي سيئاً وكنت في أشد الحاجة إلى النقود، أليس كذلك؟

- كلا، لم يكن مركزي المالي سيئاً جداً، كنت أشعر ببعض الضيق.

- بل كنت في مأزق، ثم قابلت هذه المرأة الغنية فسعيت وراءها بإلحاح لتفرض نفسك عليها.

- إنك تقلب الحقائق، قلت لك إنني أحببتها.

- جاء في أقوال الشهود أن الآنسة فرنش كانت تستطلع رأيك في موضوع ضريبة الدخل، فهل هذا صحيح؟

- نعم، إن استمارات الضرائب شديدة التعقيد كما تعلم وأكثر الناس يتعذر عليهم معرفة أولها من آخرها.

فقال مايرز: ولكن جانيت ماكنزي قالت في شهادتها أن الآنسة فرنش كانت امرأة أعمال بارعة وأنها كانت تعالج شؤونها المالية بذكاء.

- ذلك ما لم تقله لي الآنسة فرنش. لقد قالت لي إن استمارات الضرائب تحيرها وتضايقها.

- لا شك أنك وأنت تملأ استمارات الضرائب الخاصة بها قد عرفت حقيقة إيراداتها؟

- لا.

- أتقول لا؟

- بل أعني نعم، بطبيعة الحال.

- كيف اتفق يا سيد فول أنك لم تصطحب زوجتك ولو

مرة واحدة في زياراتك المتكررة للآنسة فرنش؟

- لا أعلم، لم أرَ ضرورة لاصطحابها في هذه الزيارات.

- هل قلت إن الآنسة فرنش كانت تعلم أنك متزوج؟

- نعم.

- ومع ذلك لم تطلب إليك أن تأتي بزوجتك لزيارتها؟

- لا، لم تطلب.

- لماذا؟

- لا أعلم، أعتقد أنها كانت تكره النساء.

- تعني أنها كانت تفضل عليهن الشباب الظرفاء؟ وأنت من جانبك ألم تصر على مرافقة زوجتك؟

- طبعاً لم أصر. كانت الآنسة فرنش تعلم أن زوجتي أجنبية، ولعلها ظنت أنه لا يوجد وفاق بيني وبين زوجتي.

- هل أنت الذي أفهمتها ذلك؟ هل أنت الذي أوجدت لديها هذا الانطباع؟

- لا، أظن أن هذا الانطباع كان وليد أمنية خفية في قرارة نفسها.

- هل تعني أنها كانت شغوفة بك؟

- لا، إنها لم تكن شغوفة بي ولكن... ولكنها كانت تشعر نحوي كما تشعر الأم أحياناً نحو ابنها.

- كيف؟

- في بعض الأحيان لا تطيق الأم أن يكون لابنها حبيبة أو خطيبة، شيء بهذا المعنى.

سأله مايرز: هل كنت ترجو أن تظفر بمنفعة مادية من صداقتك للآنسة فرنش؟

فأجاب ليونارد: ليس بالطريقة التي تعنيها.

فهتف مايرز: ليس بالطريقة التي أعنيها؟ يبدو أنك تعرف ما أعني أكثر مما أعرفه أنا نفسي، بأية طريقة إذن كنت ترجو الحصول على منفعة مادية؟

وبدأ مايرز يحتد وأعاد السؤال بصوت يدل على نفاد الصبر: إنني أكرر سؤالي، بأية طريقة إذن كنت ترجو الحصول على منفعة مادية؟

- الواقع أنني ابتكرت جهازاً هو نوع من مسّاحات الزجاج الأمامي للسيارات يعمل وقت تساقط الجليد، وكنت أبحث عمّن يمول مشروعاً لتصنيع هذا الجهاز وترويجه، وخطر لي أن الآنسة فرنش ربما توافق على استثمار بعض أموالها في المشروع. ولكن ذلك لم يكن السبب الوحيد لترددي عليها فقد كنت أحبها كما قلت.

فصاح مايرز بنفاد صبر: نعم، نعم، لقد سمعنا هذا الكلام مراراً وتكراراً حتى أصبحنا نعرف مبلغ حبك لها وشغفك بها.

- إن ما قلته هو الحقيقة.

- أعتقد يا سيد فول أنك قبل مصرع الآنسة فرنش بنحو أسبوع كنت تطوف ببعض المكتبات السياحية للحصول على بيانات وتفصيلات عن الرحلات البحرية إلى الخارج، أليس كذلك؟

فصاح ليونارد: هب أنني فعلت، فهل في ذلك جريمة؟

- لا، بتاتاً. إن بعض الناس يذهبون في رحلات بحرية للخارج حين تكون لديهم القدرة على دفع نفقاتها، ولكن لم يكن بوسعك أنت أن تدفع نفقات رحلة بحرية للخارج، أليس كذلك يا سيد فول؟

- لقد كنت في ضيق مالي، وقد قلت ذلك.

- ورغم ذلك فإنك ذهبت إلى مكتب السياحة ومعك فتاة شقراء شعرها في لون الفراولة، أو بمعنى آخر...

فقاطعه القاضي: ماذا تعني بعبارة شقراء شعرها في لون الفراولة يا سيد مايرز؟

- هذا تعبير معناه أن شعرها أحمر يا سيدي القاضي.

فقال القاضي: كنت أظن أنني أعرف كل شيء عن الشقراوات، أما ذوات الشعر الذي في لون الفراولة... استمر يا سيد مايرز.

قال مايرز: ماذا تقول في ذلك يا سيد فول؟

فأجاب ليونارد: زوجتي أولاً ليست شقراء، ثم إنني فعلت ذلك على سبيل الترويح عن النفس.

- إذن أنت تعترف بأنك قد استفسرت عن رحلة بحرية، رحلة ليست رخيصة وإنما من أبهظ الرحلات نفقة وأكثرها ترفاً. كيف كنت تتوقع توفير نفقات مثل هذه الرحلة؟

- لم أكن أتوقع ذلك.

- في تصوري أنك كنت تعلم أنك بعد أسبوع أو نحو ذلك سترث ثروة طائلة من سيدة عجوز تضع فيك ثقتها.

- لم أكن أعلم شيئاً من ذلك، كل ما في الأمر أنني كنت أشعر بالضيق ورأيت لوحات إعلانية بباب الشركة السياحية عليها صور أشجار نخيل وبحار زرقاء، فدخلت مكتب الشركة وسألت عن أجر الرحلات. ورمقني موظف الشركة بنظرة احتقار لأنني كنت أرتدي ثوباً قديماً باهت اللون، فأغاظتني نظرته وقررت أن أمثل دوراً.

وهنا أشرق وجه ليونارد فجأة بابتسامة مرحة وكأنما سره أن يتذكر منظره وهو يقوم بذلك الدور. ثم استطرد قائلاً: وهكذا بدأت أسأله عن أروع الرحلات وأكثرها ترفاً وعن أجر الإقامة في غرفة مستقلة على سطح الباخرة...

فقال مايرز: هل تتوقع حقاً أن يصدق المحلفون هذا الكلام؟

- إنني أروي ما حدث فحسب. أعلم أنه كان عملاً صبيانياً ولكني وجدت فيه شيئاً من المتعة والترفيه.

قال ذلك وأجال البصر حوله وفي عينيه نظرة تثير الشفقة، ثم استطرد قائلاً: ولم أكن أفكر في قتل أحد أو في الحصول على أي ميراث.

- إذن فقد كان مصرع الآنسة فرنش بعد بضعة أيام وانتقال ثروتها إليك مجرد مصادفة؟

فصاح ليونارد: قلت لك إنني لم أقتلها.

- تقول في روايتك إنك غادرت بيت الآنسة فرنش في الساعة التاسعة إلا أربع دقائق وإنك سرت على قدميك فوصلت إلى بيتك في الساعة التاسعة و ٢٥ دقيقة، وقضيت الليلة كلها في بيتك بعد ذلك؟

- نعم.

- ولكنك سمعت السيدة رومين هايلجر تدحض هذه القصة أمام المحكمة، وسمعتها تقول إنك لم تصل إلى البيت في الساعة التاسعة و ٢٥ دقيقة وإنما في الساعة العاشرة و١٠ دقائق.

- إن ما قالته غير صحيح.

- وأن ثوبك كان ملوثاً بالدم، وأنك اعترفت لها بأنك قد قتلت الآنسة فرنش؟

- كذب، قلت لك إن هذا كذب! وليس فيما قالته كلمة واحدة صادقة.

- هل تستطيع أن تذكر سبباً واحداً يدعو هذه المرأة

التي كان المعروف أنها زوجتك إلى التقدم طواعية للإدلاء بشهادتها إذا لم تكن هذه الشهادة تمثل الحقيقة والواقع؟

- كلا، لا أستطيع، وذلك هو المزعج في الأمر. لا يوجد سبب أبداً إلا أن تكون قد فقدت صوابها.

- أتظن أنها قد فقدت صوابها؟ ولكنها كانت متزنة غاية الاتزان ومتمالكة نفسها تماماً، هل الجنون هو المبرر الوحيد في اعتقادك؟

- لا أعلم، ولست أدري ماذا أصابها وما سبب هذا التغير الذي طرأ عليها.

فقال مايرز ساخراً: كلام مؤثر حقاً. ولكن هذه المحكمة لا تأخذ إلا بالحقائق، والحقيقة يا سيد فول هي أنه ليس لدينا ما يثبت أنك غادرت بيت الآنسة فرنش في الموعد الذي ذكرته ووصلت إلى بيتك في الساعة التاسعة والدقيقة ٢٥ ثم بقيت في البيت بعد ذلك، ليس لدينا ما يؤيد كل هذا سوى كلامك.

فصاح ليونارد بحدة: لا بد أن يكون هناك من شاهدني في الطريق أو رآني حين دخلت بيتي.

- ذلك ما يجب أن يتبادر إلى الذهن، ولكن الشخص الوحيد الذي رآك تدخل بيتك في تلك الليلة يقول إنك وصلت في الساعة العاشرة وعشر دقائق، وهذا الشخص نفسه يقول إن ثوبك كان ملطخاً بالدم.

فصاح ليونارد: قلت لك إنني جرحت يدي.

- ما أيسر أن تجرح يدك لتجد مبرراً عندما تُسأل!

قال ليونارد وقد بدأ ينهار: إنك تقلب الأمور وتشوه الحقائق وتجعلني أبدو شخصاً آخر غير من أنا حقاً.

فصاح مايرز في وجهه: أنت جرحت يدك عمداً.

- لا، لم أفعل ذلك، ولم أفعل أي شيء، ولكن من يسمعك يظن أنني فعلت، حتى لأكاد أنا نفسي أن أشعر بالذنب.

فصرخ مايرز: لقد عدت في الساعة العاشرة وعشر دقائق.

- لا، لم يحدث، يجب أن تصدقني، يجب أن تصدقني.

- أنت قتلت إميلي فرنش.

- لا، لم أقتلها، ولم أقتل في حياتي أحداً. يا إلهي! أما آن لهذا الكابوس أن ينزاح؟ أما آن لي أن أصحو من هذا الحلم المزعج؟

ودفن وجهه بين كتفيه واهتز جسده بشدة وهو ينشج بالبكاء. وساد القاعة صمت عميق قطعه القاضي أخيراً بقوله: رُفعت الجلسة على أن تُستأنف محاكمة المتهم غداً صباحاً مع التنبيه على الشهود بعدم التخلف.

* * *

الفصل التاسع

كان الليل قد أرخى سدوله عندما وصل السير ويلفريد روبرتس إلى مكتبه، ومعه زميله جون مايهيو. كان الرجلان قد ذهبا لتناول الطعام عقب الجلسة الطويلة المضنية التي قضت على آمالهما في إنقاذ ليونارد فول من حبل المشنقة، ثم قصدا إلى المكتب لاستعراض الموقف والاتفاق على أسلوب الدفاع.

وقد استقبلتهما جريتا بقولها: طاب مساؤك يا سير ويلفريد. إن الطقس مزعج الليلة والريح لا تكف عن الزئير.

فقال السير ويلفريد وهو يخلع قبعته ومعطفه: إن الريح لا تزعجني بقدر ما تزعجني كثافة الضباب.

ودخل غرفة مكتبه وأضاء نورها ثم أسرع إلى النافذة فأسدل ستارها وقال يحدث مايهيو الذي دخل في إثره: يخيل إلي أنه لا توجد عدالة في هذه الدنيا يا جون. كدنا أن نختنق في قاعة الجلسة وكنا نتوق إلى نسمة هواء، وها نحن نواجه ريحاً عاتية وضباباً كثيفاً لا تكاد تنفذ منه أنوار المصابيح.

قال ذلك وأضاء مصباحاً كهربائياً فوق مكتبه، فأجاب

مايهيو وهو يضع حقيبة الأوراق على ركن المكتب: مهما يكن من أمر فإنه ليس أكثف من الضباب الذي وضعتنا فيه رومين هايلجر بنزواتها المريبة.

فقال السير ويلفريد: قبحها الله! لقد أحسست منذ اللحظة الأولى بأنها تضمر لا خيراً.

- إنها امرأة شديدة الحقد وأعمق من أن يفهمها شاب ساذج كذلك المتهم المغفل.

- ولكن ما هدفها يا جون؟ وماذا وراء هذه اللعبة الخطيرة التي لعبتها؟

- إن الأمر واضح كالصبح لذي عينين، إنها تريد أن يدان ليونارد بتهمة القتل.

- ولكن لماذا؟ انظر ما فعله من أجلها. لقد أنقذها وتزوجها وجاء بها إلى هذه البلاد وهيأ لها كل أسباب الاستقرار والسعادة.

قال مايهيو ساخراً: لعله فعل من أجلها أكثر مما ينبغي.

فقال السير ويلفريد وهو يقف أمام المدفأة ويبسط يديه فوق أخشابها المشتعلة: ولذلك تحتقره، ذلك هو التفسير المنطقي. ألا ما أشد جحود النساء! ولكن لماذا تحقد عليه؟ إذا كانت قد سئمته أو ضاقت به فليس أيسر عليها من أن تدعه وتذهب في سبيلها، خاصة وأنه لا توجد أسباب مالية

تحملها على البقاء معه.

وفتح باب المكتب في هذه اللحظة ودخلت جريتا وبين يديها صينية عليها كوبان من الشاي. قالت: لقد أحضرت الشاي يا سير ويلفريد.

ووضعت الكوبين على طرفي المكتب فقال السير ويلفريد: حسناً فعلت يا جريتا، نحن حقاً بحاجة إلى بعض الشاي المركز.

سألته الفتاة: كيف سارت الأمور اليوم؟

فقلب السير ويلفريد شفته وأجاب: كأسوأ ما يكون.

– هذا أمر يؤسف له، لأنني على يقين من أنه لم يرتكب تلك الجريمة.

فرمقها بعينيه طويلاً وقال: ألا زلت تعتقدين أنه لم يرتكبها؟ ولكن لماذا؟

فأجابت بحماسة: إنه ليس من طراز المجرمين. إنه شاب دمث الخلق وديع، بل لعله أكثر وداعة مما ينبغي.كلا، إنه ليس الرجل الذي يهشم رأس امرأة عجوز. ولكنك ستعمل على تبرئته، أليس كذلك يا سير ويلفريد؟

فأجاب المحامي الكبير: سأحاول، سأحاول أن أفعل ذلك يا جريتا.

انصرفت الفتاة متهللة الوجه، ونظر السير ويلفريد إلى مايهيو وقال مستطرداً وكأنه يحدث نفسه: ولكن ما هي

الوسيلة؟ الله وحده يعلم! ومما يؤسف له أن ليس في هيئة المحلفين سوى امرأة واحدة. من الواضح أن النساء يعطفن عليه، ولا أدري لماذا؟ فهو لا يتميز بشيء وليس وسيماً بدرجة غير عادية، ولكن لعل فيه شيئاً يثير غريزة الأمومة في النساء ويجعلهن يردن تدليله.

قال مايهيو: بينما هايلجر مجردة من عاطفة الأمومة.

- ولكنها امرأة مشبوبة العاطفة. إنها من ذلك الطراز الذي لا يتورع عن طعن الرجل الذي يخونها بسكين. يا إلهي، كم أود أن أحطمها وأفضح أكاذيبها وأظهرها للملأ على حقيقتها!

نهض مايهيو وقال وهو يدنو منه: معذرة يا ويلفريد، ولكن ألا ترى أنك تكاد أن تجعل من هذه القضية مبارزة شخصية بينك وبين هذه المرأة؟

- أحقاً؟ ربما. إنها امرأة سوء يا جون، وأنا واثق من ذلك. إن حياة الشاب تتوقف على نتيجة هذه المبارزة.

أشعل مايهيو غليونه وقال: لا أظن أن المحلفين أحبوها.

- أنت على حق في ذلك يا جون، أنا واثق من أنهم لم يحبوها. أولاً لأنها أجنبية وهم لا يثقون بالأجانب، وثانياً لأنها عاشرته بغير زواج وذلك اعتراف منها بارتكاب جريمة الزنا. كل ذلك من شأنه أن يوغر صدورهم عليها، يضاف إلى هذا كله أنها لم تساند رجلها في محنته. نحن في هذه البلاد لا نحب مثل هذا السلوك.

- كل ذلك من مصلحة ليونارد فول.

- هذا صحيح. ولكنه لا يكفي، إذ ليس هناك ما يؤيد أقواله.

لقد اعترف بأنه زار الآنسة فرنش في تلك الليلة وبصمات أصابعه وجدت في كل مكان بالغرفة ولم يره أحد وهو في طريقه إلى بيته، ثم هناك الوصية، ومما زاد الطين بلة حكاية ذهابه إلى مكتب الشركة السياحية. لقد أعادت المرأة كتابة وصيتها لمصلحته فانطلق تواً للاستفسار عن الرحلات البحرية الباهظة التكاليف. كل هذه قرائن لا سبيل إلى التهوين من خطورتها.

قال مايهيو: وهو كذلك.

قال السير ويلفريد: أظن أننا قد وُفّقنا إلى حد ما مع جانيت ماكنزي.

- تعني أنك فضحت تحيزها؟

- نعم، والواقع أن تحيزها كان واضحاً.

- ثم إن اكتشافك صممها وثقل سمعها كان عملاً رائعاً.

- ولكنها ردت الضربة بمثلها في موضوع جهاز الراديو. وبهذه المناسبة، ما رأيك الشخصي في حقيقة ما حدث في تلك الليلة يا جون؟ هل تعتقد أنه حادث سطو مع استخدام العنف؟ إن رجال الشرطة أنفسهم لم يستبعدوا هذا الاحتمال.

- ولكنهم لم يؤيدوه، وقد ألقوا القبض على المتهم وجمعوا الأدلة ضده، وهم قلما يخطئون. ثم إن مفتش الشرطة كان واثقاً من أنها مسألة داخلية وأن النافذة قد حُطّمت من الداخل.

- ربما كان مخطئاً.

- من يدري!

- وعلى فرض أنه مخطئ، فمَن يكون الرجل الذي سمعته جانيت ماكنزي يتحدث مع سيدتها في الساعة التاسعة والنصف؟

- يخيل إليّ أن هناك إجابتين على هذا السؤال.

- وهما؟

- أن تكون جانيت قد لفقت هذه الحكاية حين وجدت أن رجال الشرطة غير مقتنعين تماماً بفكرة السطو.

فدهش مايهيو وقال: من المؤكد أنها لا يمكن أن تقدم على أمر كهذا.

- وثمة احتمال آخر، هو أن تكون تلك الخادمة العجوز هي نفسها التي...

فقاطعه مايهيو وقد روعته الفكرة: يا إلهي! أتعني حقاً أنها...

ولم يتم عبارته، فقد فتح الباب في تلك اللحظة ودخل كارتر وقال وهو يغلق الباب وراءه: أرجو المعذرة يا سير

ويلفريد، لقد جاءت سيدة في مقتبل العمر تطلب مقابلتك. إنها تقول إن الموضوع خاص بقضية ليونارد فول.

فهز السير ويلفريد كتفيه وقال: لعلها إحدى المعتوهات المولعات بإقحام أنفسهن في القضايا الكبرى طلباً للشهرة.

- كلا يا سير ويلفريد، فأنا أعرف هذا الطراز من النساء.

- أي نوع من النساء هي؟

- امرأة عادية، تتكلم في غير كلفة.

- وماذا تريد؟

- قالت إنها تعرف أموراً قد تفيد المتهم.

فتنهد السير ويلفريد وقال: لا أعتقد أن هناك شيئاً يفيد المتهم.

والتفت إلى مايهيو وقال: ما رأيك يا جون؟

فأجاب مايهيو دون تردد: الرأي عندي أننا يجب ألا نستسلم لليأس وأن لا نتجاهل أية فرصة أو أي احتمال.

فالتفت السير ويلفريد إلى كارتر وقال: دعها تدخل.

* * *

الفصل العاشر

كانت الزائرة امرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ترتدي ثوباً رخيصاً صارخ اللون، وشعرها الأشقر ينسدل على جانب من وجهها بينما توارى الجانب الآخر تحت طبقة من الأصباغ استخدمت فيها الدهون والألوان بسخاء وبطريقة بدائية.

قال كارتر يقدمها: ها هي السيدة.

ثم انصرف وأغلق باب الغرفة. ونهض مايهيو واقفاً لاستقبال الزائرة، ولكنها تقدمت ببطءٍ وراحت تنقل بصرها بين الرجلين، ثم قالت بصوت أجش: رجلان؟ ما معنى هذا؟ لقد جئت لأتحدث إلى اثنين؟

ودارت على عقبيها وهمت بالانصراف، فقال السير ويلفريد: هذا السيد مايهيو، أحد أعضاء هيئة الدفاع عن ليونارد فول، وأنا السير ويلفريد.

فنظرت إليه المرأة بحدة وقالت: إذن فأنت السير ويلفريد؟ الحق أنني لم أعرفك بدون الشعر المستعار أيها العزيز. إن الشعر المستعار يضفي عليكم جميعاً مهابة وجمالاً.

فنظر مايهيو إلى السير ويلفريد بينما استطردت المرأة قائلة: هل كنتما في مؤتمر للدفاع عن المتهم؟ في استطاعتي أن أعاونكما إذا وجدت ما يعوضني عن جهودي ووقتي.

فقال السير ويلفريد: أنت تعلمين يا آنسة...

وانتظر أن تذكر له اسمها ولكنها جلست على أحد المقاعد قبل أن يدعوها أحد للجلوس وقالت: لا ضرورة للأسماء، إذا ذكرت لك اسماً فإنه لن يكون اسمي الحقيقي.

فقال السير ويلفريد: على رسلك، هل رأيت أن من واجبك الحضور للإدلاء بمعلومات قد تفيد المتهم؟

- لم أقل إنني أعلم شيئاً، والتعبير الصحيح هو أن لدي أشياء.

فسألها مايهيو: ماذا لديك يا سيدتي؟

فأجابت: مهلاً، مهلاً، لقد كنت في المحكمة اليوم ورأيت تلك الفاجرة حين أدلت بشهادتها. كانت تتكلم بكبرياء وغطرسة وكأنها تفخر بنفسها، ولكنها امرأة شريرة. صدقني، إنها امرأة شريرة.

- صدقت، ولكن ما هي تلك الأشياء التي قلت إنها في حوزتك؟

فقالت المرأة بخبث: كل شيء له ثمنه، فكم ستدفع لي؟ إنها أشياء ثمينة جداً وأنا أريد مئة من الجنيهات ثمناً لها.

فقال مايهيو: يؤسفني أن أقول إننا لا نعقد صفقات من هذا النوع، ولكن ربما إذا أوضحت وأعطيتنا فكرة عما في حوزتك...

- هل شعارك دائماً: التجربة قبل الدفع؟

قال السير ويلفريد: ماذا تعنين؟

فضحكت المرأة ضحكة مقيتة وقالت: لا عليك. إن في حوزتي ما يفضح أكاذيب تلك الفاجرة ويحطم كبرياءها وصلفها. لدي سلاح يميط اللثام عنها ويظهرها على حقيقتها، لدي رسائل...

وفتحت حقيبتها القديمة البالية، فهتف السير ويلفريد: رسائل كتبتها رومين فول للسجين؟

فضحكت المرأة مرة أخرى تلك الضحكة الفاجرة التي لا تصدر إلا من امرأة من أحط الساقطات وقالت: للسجين؟! إنك تضحكني حقاً، لقد نفضت يدها من السجين المسكين وانتهى الأمر. سوف أبيعك شيئاً له أهميته.

فقال مايهيو في رفق: إذا أطلعتنا على الرسائل فقد نعرف مبلغ أهميتها.

- أعلم أنكم لن تدفعوا قبل أن تروا، أو كما سبق أن قلت: الدفع بعد التجربة. لا بأس، ولكني سأكون صريحة وواضحة، إذا وجدتم أن هذه الرسائل ستفيدكم في حل المشكلة وإخراج الشاب المسكين من ورطته ووضع تلك

العاهرة الأجنبية في مكانها الصحيح فسوف أتقاضى مئة من الجنيهات ثمناً لها، اتفقنا؟

فأخرج مايهيو محفظته وقال وهو يتناول بعض الأوراق المالية: إذا وجدنا أن الرسائل تتضمن معلومات تفيدنا في الدفاع عن المتهم فإننا على استعداد لأن نقدم إليك مبلغ عشرة جنيهات مساعدة لك في مصاريف الانتقال.

فصاحت المرأة مستنكرة: عشرة جنيهات حقيرة ثمناً لرسائل كهذه؟ مستحيل! يحسن بك أن تعيد التفكير في الأمر.

فاقترب السير ويلفريد من مايهيو وتناول منه المحفظة وقال يحدث المرأة: إذا كانت لديك رسالة أو عدة رسائل تثبت ببراءة المتهم فأعتقد أن عشرين جنيهاً ستكون مبلغاً معقولاً لتغطية نفقاتك.

قال ذلك وأخرج من المحفظة عشرة جنيهات أخرى، ثم ردّ المحفظة الخاوية إلى مايهيو ولوح للمرأة بالعشرين جنيهاً فقالت: سآخذ خمسين جنيهاً وتكون أنت الرابح، ولن آخذها قبل أن تطمئن إلى مضمون الرسائل.

فقال السير ويلفريد وهو يضع النقود على المكتب: عشرين جنيهاً، لا أكثر.

فنظرت المرأة إلى النقود بجشع وبللت شفتيها بلسانها. كان الإغراء قوياً فلم تلبث أن قالت: حسناً، لعنة الله عليك. إليك الرسائل. إنها حزمة كبيرة كما ترى، ولكن الرسالة العليا هي أهمها جميعاً، وهي كفيلة بحسم الأمور.

ووضعت الرسائل على المكتب ومدت يدها لتناول النقود، ولكن السير ويلفريد كان أسبق منها فوضع يده على النقود، وحينئذٍ أسرعت المرأة بدورها واستردت الرسائل.

قال السير ويلفريد ويده لا تزال فوق النقود: صبراً لحظة، ما أدراني أن هذه الرسائل بخطها؟

فأجابت المرأة: إنها بخطها فاطمئن. جميعها بخط يدها، أنا أعاملك بأمانة وصدق.

- ليس لدينا ما يثبت ذلك سوى كلامك.

قال مايهيو: إن لدي رسالة بخط رومين فول ولكنها ليست معي، إنها في مكتبي.

فقال السير ويلفريد: أظن أن لا مناص من أن نصدقك ونثق فيك يا سيدتي. إليك النقود.

وتمت المبادلة، فتناول السير ويلفريد الرسائل وشرع في فحصها وقراءتها، وتناولت المرأة النقود وراحت تضعها ببطء في حقيبتها وسارت نحو الباب. وهناك تمهلت قليلاً ونظرت إلى الرجلين وهما يتبادلان الملاحظات بصوت خافت وسمعت السير ويلفريد يقول لزميله: هذا أمر لا يصدقه عقل.

كان يقرأ إحدى الرسائل وكان مايهيو يطل من فوق كتفه ويقرأها معه، ولم يلبث أن هتف: قبحها الله، ما أشد حقدها!

وطوى السير ويلفريد الرسالة ونظر إلى المرأة وسألها

باهتمام: كيف حصلت على هذه الرسائل؟

- هذا شأني.

- ماذا بينك وبين رومين فول؟ لماذا تنقمين عليها؟

فأخذت المرأة تنقل بصرها بين الرجلين، ثم اقتربت من المكتب حتى وقفت في دائرة الضوء المنبعث من المصباح، ثم استدارت ليرى الرجلان ذلك الجانب من وجهها الذي يختفي تحت ستار من شعرها الأشقر المتدلي فوق خدها.

وبحركة مسرحية درامية رفعت شعرها وكشفت عن خدها فإذا هو ممزق تمزيقاً ومشوه تشويهاً مخيفاً، وقد امتلأ بالندبات وأثخن بالجراح. ولم يتمالك السير ويلفريد من التراجع في ذعر وهلع.

قالت المرأة وهي تشير إلى خدها: أترى هذا؟

قال السير ويلفريد: هل هي التي فعلت ذلك بك؟

- كلا، ليست هي، لكنه صديقي الذي عاشرته مدة طويلة. كان أصغر مني سناً ولكنه كان يحبني كما أحبه، إلى أن ظهرت هذه المرأة في حياتنا فأعجبت به وسرقته مني. كانت في البداية تقابله سراً، ثم انتهى به الأمر إلى أن هجرني. وكنت أعرف الأماكن التي يختلف إليها فتعقبته حتى ضبطته مع تلك الفاجرة، ولم أتمالك من أن أقول لها رأيي فيها، فما كان منه إلا أن انقض عليّ وأثخن وجهي بالجراح كما ترى. وقد صاح بي وهو يمزق وجهي بالموس:

والآن لن تجدي رجلاً ينظر إليك.

فنظر إليها السير ويلفريد مشفقاً وسألها: ألم تبلّغي الشرطة؟

- أنا؟ كلا، إنني لست ممن يلجؤون إلى الشرطة. أضف إلى ذلك أنه ليس هو المسؤول في الواقع. هي وحدها المسؤولة أولاً وأخيراً، هي التي سرقته مني وهي التي أثارته عليّ وحرضته على تشويه وجهي. ولكني صبرت وانتظرت عسى أن تسنح لي الفرصة للانتقام. تعقبتها وراقبتها وعرفت الأماكن التي تتردد عليها خفية لتجتمع فيها بصديقي وعرفت البيت الذي يقيم هو فيه، وهكذا استطعت الاستيلاء على هذه الرسائل. والآن، ها أنت قد عرفت القصة كلها، فهلا منحتني قبلة أيها السيد؟

ورفعت شعرها بيدها وقدمت إليه خدها المشوه، ولكنه تراجع مذعوراً، فقالت في شيء من الأسى: إنني لا ألومك.

قال السير ويلفريد بتأثر: أنا آسف لك أشد الأسف، إنني آسف لك حقاً. هل أجد معك خمسة جنيهات يا جون؟

ولكن مايهيو هز رأسه ولوح بمحفظته الخاوية، فأخرج السير ويلفريد من جيبه خمسة جنيهات قدمها إلى المرأة وهو يقول: إليك خمسة جنيهات أخرى.

- ألا ترى أنني قد غُبنت في هذه الصفقة؟

واقتربت منه، ولكنه تراجع حتى كان يصطدم بمايهيو،

فقالت المرأة: أعلم أنني بعتك هذه الرسائل بثمن بخس، ولكن ألا تعتقد أنها تؤدي الغرض وتكفي لتحطيم تلك الفاجرة؟

فأجاب ويلفريد: أعتقد أننا نستطيع الإفادة منها. هل لك أن تقرأ هذه الرسالة يا جون؟

وبينما كان الرجلان يتبادلان الرأي تسللت المرأة نحو الباب وخرجت مسرعة.

* * *

الفصل الحادي عشر

قال مايهيو وهو يفحص إحدى الرسائل: أظن أنه يحسن بنا الاستعانة بأحد خبراء الخطوط لفحص هذه الرسائل زيادة في الاحتياط، وبوسعنا أن ندعوه للشهادة إذا لزم الأمر.

فقال السير ويلفريد: يجب أولاً أن نعرف منها اسم صديقها وعنوانه.

فرفع مايهيو رأسه وبحث عن المرأة، ولكنه لم يجد لها أثراً، فهتف: أين ذهبت؟ ما كان ينبغي أن تنصرف قبل أن تدلي إلينا ببعض التفصيلات.

هرول السير ويلفريد إلى الباب وهو يصيح: كارتر، كارتر.

- نعم يا سيد ويلفريد.

- أين ذهبت المرأة التي كانت معنا الآن يا كارتر؟

- لقد انصرفت يا سيدي.

- لم يكن ينبغي أن تدعها تنصرف. أرسل جريتا في أثرها فإنني بحاجة إليها.

وعاد السير ويلفريد إلى غرفة المكتب فابتدره مايهيو قائلاً: هل انصرفت؟

- نعم، وقد أرسلت جريتا في إثرها ولكني أشك في أنها ستستطيع اللحاق بها نظراً لكثافة الضباب. يجب أن نعرف اسم الرجل كاملاً وعنوانه مهما كلفنا الأمر.

- لا أعتقد أننا سنوفق إلى ذلك، فقد وضعت المرأة خطتها بذكاء شديد وحرصت على ألا تذكر لنا اسمها أو عنوانها وتسللت إلى الخارج حينما وجدتنا منهمكين في فحص الرسائل، وأعتقد أنها أحسنت صنعاً، فإنها لا تجسر على الوقوف في المحكمة كشاهدة. ألم تر ما فعله الرجل بها؟ في المرة الأولى مزق وجهها، ولكنه في هذه المرة لن يتردد في قتلها.

قال السير ويلفريد بصوت يدل على عدم الاقتناع: تستطيع الشرطة أن تحميها.

- أحقاً؟ وإلى متى؟ إن الرجل سيبطش بها حتماً آخر الأمر، هو أو أحد زملائه.

- لقد جازفت فعلاً بالقدوم إلى هنا، ومن الواضح أنها لم تشأ إقحام الرجل في القضية. إنها تريد رأس رومين هايلجر فحسب، تريد أن تنتقم منها وحدها.

لمعت عينا السير ويلفريد وقال: مَن كان يظن أن رومين

هايلجر تفعل ذلك؟ سوف يكون لنا معها شأن، أي شأن.

فقال مايهيو: أظن أننا قد وضعنا إصبعنا على نقطة البداية، وعلينا الآن أن نضع خطة العمل.

- دعنا نفرغ أولاً من فحص هذه الرسائل والإلمام بما جاء بها، على أن نشرع بعد ذلك في بحث الإجراءات.

* * *

الفصل الثاني عشر

غصت قاعة الجلسة بالجمهور، واحتل كل مكانه فيما عدا القاضي وممثل الاتهام وهيئة المحلفين. وراح السير ويلفريد وجون مايهيو يتصفحان بعض الأوراق ويضعان اللمسات الأخيرة في خطة الدفاع.

وبعد لحظة دخل مايرز يتبعه مساعده، ونظر ممثل الاتهام إلى حيث كان يجلس السير ويلفريد وحياه بإحناء رأسه وفي عينيه نظرة فوز لم تغب عن ملاحظة السير ويلفريد. وفي اللحظة التالية أعلن الحاجب قدوم القاضي فوقف الجميع وساد القاعة صمت عميق.

ودخل القاضي وتبعته هيئة المحلفين، وما أن استقر القاضي في مقعده حتى نهض السير ويلفريد وقال: سيدي القاضي، حدث بعد أن رُفعت الجلسة أمس أن وقعت تحت يدي أدلة على جانب عظيم من الأهمية أعتقد أنها ستلعب دوراً خطيراً في تغيير مسار القضية، ولذلك أرجو من سيادتكم الموافقة على استدعاء شاهدة الإثبات الأخيرة، السيدة رومين هايلجر، لإعادة استجوابها.

وكان هذا الطلب مفاجأة لمايرز فنظر إلى السير ويلفريد في دهشة، وهمّ بالوقوف للتعقيب على طلب الدفاع ولكنه رأى كاتب الجلسة يغادر مكانه ويهمس في أذن القاضي بكلام، ثم سمع القاضي يقول: ما هو على وجه التحديد الوقت الذي وقعت فيه على هذه الأدلة الجديدة يا سير ويلفريد؟

فأجاب ويلفريد: لقد جاءتني أمس عقب رفع الجلسة.

فوثب مايرز من مقعده وصاح: سيدي القاضي، إنني أعترض على طلب زميلي الدفاع، فقد فرغ الادعاء من شرح القضية وتقديم الأدلة وفرغت المحكمة من سماع الشهود ولم يبقَ إلا...

فقاطعه القاضي قائلاً: سيد مايرز، لم يكن في نيتي بحال أن أفصل في طلب الدفاع دون الرجوع إلى التقاليد المرعية ودعوتك لإبداء ملاحظاتك على الطلب المذكور. تكلم يا سير ويلفريد.

فقال السير ويلفريد: سيدي القاضي، عندما يقع الدفاع على أدلة جديدة ذات أهمية حيوية بالنسبة إلى المتهم قبل أن يصدر المحلفون قرارهم، فإن طرح هذه الأدلة للمناقشة أمام المحكمة لا يكون جائزاً فحسب وإنما يكون كذلك أمراً مرغوباً فيه لتحقيق العدالة، ومن حسن الحظ أن هناك سابقة قانونية تؤيد وجهة نظري، هي قضية النيابة ضد ستيلمان الواردة بصفحة ٤٦٣ من سجل القضايا المستأنفة

في سنة ١٩٢٦. قال ذلك وأشار إلى صفحة في تقرير أمامه، فقال القاضي: لم تكن بك حاجة إلى الاستدلال بالمرجع والمستندات يا سير ويلفريد، فإنني أعرف هذه السوابق. وأود الآن أن أسمع تعقيب الادعاء، تكلم يا سيد مايرز.

فقال مايرز: مع احترامي لرأي سيادتكم فإن الإجراء الذي يطالب به زميلي لا يجوز إطلاقاً إلا في ظروف خاصة مستثناة، فهل لي أن أعرف ما هي تلك الأدلة المذهلة الجديدة التي يتحدث عنها زميلي ويطالب على ضوئها بإعادة استجواب الشاهدة؟

فقال السير ويلفريد: هذه الأدلة هي رسائل يا سيدي القاضي، رسائل كتبتها رومين هايلجر.

قال القاضي: أريد أن أرى هذه الرسائل يا سير ويلفريد.

فتناول الحاجب الرسائل وقدمها إلى كاتب الجلسة، فقدمها هذا إلى القاضي الذي شرع في فحصها وقراءتها.

ونهض مايرز ليقول: سيدي القاضي، إن الطلب الذي تقدم به زميلي كان مفاجأة لي، ولم يكن لي به علم من قبل فلم تتح لي فرصة لبحثه في المراجع القانونية، ولكني أذكر أنه كانت هناك قضية في سنة ١٩٣٠ هي قضية النيابة ضد بورتر، وأعتقد أن...

- كلا يا سيد مايرز، لقد كانت هذه القضية في سنة ١٩٣١، وأذكر أنني كنت فيها ممثلاً للادعاء.

فقال مايرز مستطرداً: وإذا لم تكن الذاكرة قد خانتني فإن المحكمة قد رفضت في تلك القضية طلباً مماثلاً لهذا الذي تقدم به الدفاع في قضية اليوم.

فقال القاضي: لقد خانتك الذاكرة مرة أخرى يا سيد مايرز، فقد اعترضت يومئذٍ على طلب الدفاع فرفض القاضي سويندون اعتراضي كما أرفض أنا اعتراضك الآن.

فجلس مايرز وقال السير ويلفريد: أرجو استدعاء رومين هايلجر.

نادى الحاجب رومين هايلجر، وكرر شرطي بالباب هذا النداء فدخلت رومين. بينما قال القاضي محدثاً السير ويلفريد: إذا كانت هذه الرسائل حقيقية فسوف تؤدي إلى نتائج بالغة الخطورة.

وكانت التطورات الأخيرة في القضية مفاجأة لليونارد فول نفسه، فما أن رأى المتهم زوجته مقبلة حتى اضطرب وانحنى على حارسه وهمس بكلام، ولكن الحارس لزم الصمت.

* * *

وكان مايهيو يراقبه من بعيد فأومأ إليه أن يطمئن، ولكن الشاب هز رأسه ولم يقتنع. كان في حالة يرسى لها من القلق والتوتر العصبي. واجتازت رومين هايلجر قاعة الجلسة وهي منتصبة القامة مرفوعة الرأس وجلست على مقعد الشهود في هدوء واطمئنان.

وحينئذٍ قال السير ويلفريد موجهاً كلامه إليها: لقد أقسمت اليمين أمس، فهل تعلمين أنك ما زلت مرتبطة بهذا القسم؟

- نعم.

قال القاضي: سيدة هايلجر، لقد دعوناك للشهادة مرة أخرى لكي يلقي عليك الدفاع بعض الأسئلة.

فقال السير ويلفريد: سيدة هايلجر، هل تعرفين رجلاً يدعى ماكس؟

فذعرت واعتدلت في مقعدها حين سمعت هذا الاسم، وبدا عليها الاضطراب والارتباك واضحين. فقال السير ويلفريد مرة أخرى: إنني أسألك، هل تعرفين رجلاً يدعى ماكس؟

- لا أعرف ماذا تعني.

قال ويلفريد بلطف: إن سؤالي غاية في البساطة، وهأنذا أكرره للمرة الثالثة: هل تعرفين رجلاً يدعى ماكس؟

- من المؤكد أنني لا أعرف رجلاً بهذا الاسم.

- هل أنت واثقة من ذلك؟

- أنا لم أعرف طول حياتي شخصاً يدعى ماكس.

- ومع ذلك فإنه اسم مألوف وشائع في بلادكم. هل تعنين أنك لم تعرفي قط شخصاً يدعى ماكس؟

ففكرت قليلاً ثم هزت رأسها في ارتياب وقالت: ربما أكون قد عرفت شخصاً بهذا الاسم في ألمانيا ولكنني لا أذكر جيداً، فقد مر وقت طويل منذ غادرت ألمانيا.

- أنا لا أطالبك بأن تعودي بذاكرتك إلى سنوات بعيدة مضت، يكفي أن تعودي إلى بضعة أسابيع، إلى...

وتناول إحدى الرسائل وبسطها بحيث يراها الجميع، ثم استطرد قائلاً: إلى يوم ١٧ أكتوبر الماضي.

فهتفت رومين في ذعر: ما هذا الذي بيدك؟

- رسالة.

- لا أعلم عمّ تتحدث.

- إنني أتحدث عن رسالة، رسالة كتبت في ١٧ أكتوبر الماضي. فهل تذكرين هذا التاريخ؟

- لست أذكره بصفة خاصة، لماذا؟

- لأنك في ذلك اليوم كتبت رسالة معينة لشخص يدعى ماكس.

- أنا لم أفعل شيئاً كهذا. كل ذلك كذب واختلاق ولست أعلم ماذا تهدف من ورائه.

فقال السير ويلفريد في هدوء: إن هذه الرسالة هي واحدة من مجموعة رسائل كتبتها إلى نفس الرجل على مدى فترة من الوقت.

صاحت الشاهدة وهي تنتفض غضباً: كذب، كذب، كل هذا كذب!

فقال السير ويلفريد بنفس الهدوء: يبدو أنك كنت على صلة وثيقة جداً بهذا الرجل...

وضغط بشدة على عبارة «صلة وثيقة جداً» ليجعل لها مغزى خاصاً. وهنا وثب ليونارد من مقعده في قفص الاتهام وقال موجهاً الكلام للسير ويلفريد: كيف تجرؤ على أن تقول شيئاً كهذا؟ هذا كذب!

فقال القاضي: من مصلحة المتهم أن يلزم الصمت.

وقال السير ويلفريد: إن المغزى العام لما جاء في هذه الرسائل لا يهمني، إنما يهمني مضمون رسالة واحدة منها، هي هذه الرسالة.

وبسط الرسالة بين يديه وقرأ فيها: حبيبي ماكس، لقد حدث شيء عجيب وأعتقد أن جميع متاعبنا ستنتهي قريباً...

فقاطعته رومين بأن صاحت بانفعال شديد: هذا كذب، أنا لم أكتب هذه الرسالة. مَن جاءك بها؟

فأجاب السير ويلفريد في هدوء: أما كيف وصلت إليّ هذه الرسالة فأمر لا يهم، المهم هو مضمونها.

فصاحت: أنت سرقتها، أنت لص كما أنك كذاب! أم لعل إحدى النساء قد أعطتها لك؟ نعم، لا بد أن يكون الأمر كذلك.

فقال القاضي: المرجو من الشاهدة أن تقتصر الإجابة على أسئلة الدفاع.

فصاحت: ولكني سأصم أذني عن سماع كلامه.

قال القاضي: استمر يا سير ويلفريد.

فقال المحامي: أنت لم تسمعي حتى الآن سوى مقدمة الرسالة، فهل ما زلت تصرين على أنك لم تكتبيها؟

- طبعاً أصرّ على أنني لم أكتبها. إنها مزورة، أليس من المزعج أن أُرغم على سماع مجموعة من الأكاذيب تفتق عنها ذهن امرأة غيورة؟

فقال المحامي: دعيني أقل لك إنك أنت الكاذبة، لقد كذبت على هذه المحكمة بجرأة وإصرار المرة تلو المرة، رغم اليمين التي أقسمت عليها بأن تقولي الحق ولا شيء غير الحق. والسبب الذي من أجله كذبت وأصررت على الكذب واضح في هذه الرسالة.

ودق على الرسالة بيده وصاح: هذه الرسالة التي كتبتِها بخطك ولا تستطيعين الآن الإنكار والتنصل منها.

فصاحت: أنت مجنون، ماذا يحملني على كتابة رسالة حافلة بالترهات والأباطيل؟

فقال بسرعة حتى لا يدع لها فرصة لالتقاط أنفاسها: السبب أنك رأيت باباً يفتح الطريق أمامك إلى الحرية فبادرت إلى الخروج منه، وعندما وضعت خطتك للسير

في هذا الطريق لم يكن يهمك أن يموت رجل بريء ما دام موته سيتيح لك الحرية التي تنشدينها. وكأنما لم يكفك أنك أجهزت على ضحيتك فانطلقت تفخرين بما فعلت، فكتبت إلى صديقك تصفين كيف أنك تحايلت وجرحت يد ليونارد فول بسكين المطبخ.

فصاحت رومين وقد استبدّ بها الغضب: أنا لم أكتب ذلك قط، إنما كتبت أنه هو الذي جرح يده بنفسه بينما كان يقطع شريحة من اللحم.

وخفت صوتها فجأة وقد أحست بأنها وقعت في الفخ الذي نصبه لها المحامي. وصاح السير ويلفريد بلهجة الظفر: إذن أنت تعلمين ما جاء في الرسالة قبل أن أتلوها عليك؟

فأسقط في يدها ولم يعد بوسعها أن تكابر، وصاحت في غيظ: قبحك الله، قبحك الله، قبحك الله!

وصرخ ليونارد بمحاميه: دعها وشأنها، لا تضايقها أكثر مما فعلت.

ونظرت رومين حولها في جنون، كانت أشبه بحيوان في قفص. ثم صاحت: دعوني أذهب، دعوني أخرج من هذا المكان.

ووثبت من مكانها تحاول الخروج، ولكن الحاجب أمسك بها. فقال القاضي: أيها الحاجب، قدم للشاهدة مقعداً.

وتهالكت رومين على مقعد بجوار المائدة التي وضعت عليها أدلة الجريمة ودفنت وجهها بين كفيها وأجهشت بالبكاء، فالتفت القاضي إلى المحامي وقال: والآن يا سير ويلفريد أرجو أن تقرأ الرسالة بصوت مرتفع يسمعه المحلفون.

فقرأ السير ويلفريد في الرسالة:

حبيبي ماكس،

حدث شيء غير عادي، وأعتقد أن متاعبنا ستنتهي قريباً وأنني سوف ألقاك بعد ذلك دون خوف من حاقد أو رقيب.

إن السيدة العجوز التي حدثتك عنها قد قُتلت، وأعتقد أن الشرطة تشتبه في ليونارد. لقد زارها في ليلة الجريمة ولا بد أن رجال الشرطة سيجدون بصمات أصابعه في كل مكان. أعتقد أن الجريمة قد ارتكبت في الساعة التاسعة والنصف، وقد كان ليونارد موجوداً معي بالبيت في ذلك الوقت ولكن ليس هناك من يستطيع أن يثبت ذلك سواي، هل فهمت؟ لا يوجد سواي من يستطيع أن يقول إنه كان بعيداً عن مكان الجريمة وقت حدوثها.

بل وأستطيع أكثر من ذلك أن أقول إنه قد اعترف لي بارتكابه الجريمة!

أواه يا عزيزي ماكس، إنني بحاجة إلى كلمة تشجيع منك لكي أمضي في هذا الطريق إلى نهايته، وكم سأكون سعيدة حين أتحرر من هذا الدور الذي أقوم به كارهة، دور الزوجة المحبة الوفية التي لا تستطيع

أن تنسى فضل زوجها عليها!

ومتى أدين ليونارد بجريمة القتل لحقت بك على الفور، حيث نعيش معاً حياة كلها حب وسعادة.

حبيبتك: رومين

كان السكون والصمت يسودان القاعة تماماً، فلم يكن يسمع بها سوى صوت المحامي وهو يقرأ العبارات التي تدمغ الشاهدة بالكذب والخيانة والنفاق. وما أن فرغ السير ويلفريد من تلاوة الرسالة حتى ارتفعت الهمهمة واللغط من كل ركن في القاعة، فصاح القاضي: سكوت.

ثم التفت إلى الشاهدة وقال: رومين هايلجر، هل لك أن تعودي إلى مكان الشهود؟ لقد سمعت مضمون الرسالة، فهل لديك ما تقولينه بشأنها؟

فأجابت وقد صعقتها الهزيمة: كلا.

فصاح ليونارد: رومين، قولي إنك لم تكتبيها، أنا واثق من أنك لم تكتبيها!

قال القاضي: هل لديك ما يرشدنا إلى الشخص الذي كتبت له هذه الرسالة يا سير ويلفريد؟

فرد المحامي: سيدي القاضي، هذه الرسالة جاءني بها شخص مجهول ولم تتح فرصة للتحقق من شخصيته أو من شخصية الرجل الذي كتبت له الرسائل.

فصاحت رومين: إنكم لن تعرفوا من هو، ولن أرشدكم

إليه مهما فعلتم بي.

فالتفت القاضي إلى ممثل الادعاء وسأله: هل تريد استجواب الشاهدة يا سيد مايرز؟

فنهض مايرز وهو يترنح وقال: سيدي القاضي، لقد أصبح موقفي عسيراً نوعاً ما بعد هذه التطورات.

ثم التفت إلى رومين وقال: سيدة هايلجر، أعتقد أنك امرأة شديد الحساسية متوترة الأعصاب، وأكبر الظن أنك -وأنت غريبة عن هذه البلاد وشرائعها وتقاليدها- لا تقدّرين فداحة المسؤوليات التي تقع على عاتقك حين تقسمين يميناً في إحدى المحاكم الإنجليزية. فإذا كان هناك من أرغمك بالتهديد على أن تقولي شيئاً غير الحقيقة، وإذا كنت قد كتبت هذه الرسالة تحت أي نوع من الضغوط، فيجب ألا تترددي في أن تقولي ذلك الآن.

فأجابت بضجر وفراغ صبر: هل يجب أن تمضوا في تعذيبي إلى ما لا نهاية؟ لقد كتبت هذه الرسالة فدعوني أذهب الآن.

قال مايرز: سيدي القاضي، أعتقد أن هذه الشاهدة في حالة من الانفعال والتوتر العصبي تمنعها من أن تدرك تماماً خطورة أقوالها واعترافاتها.

فقال القاضي: لعلك تذكر يا سيد مايرز أن السير ويلفريد قد حذّر الشاهدة عندما بدأت في الإدلاء بأقوالها أمس، كما

أنه قد أظهرها على التبعات التي تترتب على حلف اليمين.

ثم التفت إلى الشاهدة وقال: سيدة هايلجر، أرى من واجبي أن أنذرك بأن هذه ليست خاتمة المطاف. إنك لا تستطيعين أن تشهدي زوراً في هذه البلاد دون أن تنالي جزاءك، وأنا واثق من أن الإجراءات ستتخذ قريباً لمحاكمتك بتهمة شهادة الزور، وعقوبة هذه التهمة شديدة صارمة. في استطاعتك أن تنصرفي الآن.

فنهضت رومين وهرولت إلى الباب وهي لا تصدق بالنجاة. ونظر القاضي إلى السير ويلفريد وقال: هل لك أن تبدأ مرافعتك يا سير ويلفريد؟

فنهض المحامي وقال موجهاً الحديث إلى المحلفين: أيها السادة، عندما يظهر الحق واضحاً فإنه يتحدث عن نفسه، وأي كلام أقوله مهما كانت بلاغته لا يمكن أن يزيد من الانطباع الذي تركته في نفوسكم القصة الصادقة التي رواها لكم المتهم أو الافتراءات الخبيثة التي حاولت النيل منه والتي شهدتم الدليل على كذبها في التو واللحظة.

قال ذلك وعاد إلى مقعده. ونظر القاضي إلى المحلفين، فنهضوا على الفور وقصدوا إلى غرفتهم الخاصة للمداولة.

ولم يبرح القاضي مكانه، وكأنه كان يشعر بأن مداولة المحلفين لن تطول.

* * *

الفصل الثالث عشر

عاد المحلفون إلى مقاعدهم بعد دقائق معدودات، فقال كاتب الجلسة: ليونارد فول، قف.

فوقف المتهم، وتحدث كاتب الجلسة إلى هيئة المحلفين فقال: أيها السادة المحلفون، هل اتفقتم على رأي؟

فوقف رئيس المحلفين وأجاب: نعم.

فسأله الكاتب: هل المتهم مذنب أم غير مذنب؟

- غير مذنب.

فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف للعدالة، وصاح الحاجب: سكوت.

واعتدل القاضي في جلسته فساد الصمت. قال القاضي: ليونارد فول، لقد ثبت أنك غير مذنب في جريمة مقتل إميلي فرنش التي ارتُكبت ليلة ١٤ أكتوبر الماضي، وعلى ذلك فأنت بريء ولك الحرية في مغادرة قاعة الجلسة.

ونهض القاضي واقفاً، فوقف الجميع وبدؤوا بالانصراف.

وكان القاضي أول من انصرف وتبعه المحلفون وكاتب الجلسة وهيئة الإدعاء.

وغادر ليونارد فول قفص الاتهام وأسرع إلى حيث كان مايهيو فقال هذا: دعني أهنئك يا فتى.

فقال ليونارد بصوت متهدج: إنني لا أعرف كيف أشكرك.

فأشار مايهيو نحو السير ويلفريد وقال: هذا هو الرجل الذي يجب أن تشكره.

فسار ليونارد إلى حيث كان السير ويلفريد، ولكنه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام مايرز حين كان هذا يهمّ بالانصراف، ونظر ممثل الادعاء إلى ليونارد شزراً ومضى في طريقه دون أن ينطق بكلمة. أما ليونارد فقد اقترب من السير ويلفريد وقال له في فتور: شكراً لك يا سيدي.

كان نفوره من المحامي الكبير واضحاً، ألم يحطم هذا المحامي رومين ويحطم حياته معها؟ ثم استطرد قائلاً بصوت لا يكاد يتجاوز الهمس: لقد أخرجتني من ورطة شديدة.

فقال السير ويلفريد: ورطة شديدة؟! هل سمعت هذا الكلام يا جون. مهما يكن من أمر يا بني فإن متاعبك قد انتهت الآن.

فقال مايهيو وكان قد انضم إليهما: لقد كان عنقك قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة.

فأجاب الشاب بشيء من التبرم: أظن ذلك.

قال ويلفريد: لو أننا لم نستطع تحطيم تلك المرأة لأصبح...

فقاطعه ليونارد قائلاً: هل كان من الضروري أن تهاجمها كما فعلت؟ كان منظرها حينما انهارت يدعو إلى الإشفاق. لا أستطيع أن أصدق أن...

فقاطعه السير ويلفريد قائلاً بحزم وبكل ما لشخصيته من قوة: أصغِ إليّ يا ليونارد، أنت لست أول شاب صادفته وقع في غرام امرأة فأعماه الحب عن فهمها على حقيقتها. هذه المرأة قد بذلت قصارى جهدها لتضع حبل المشنقة حول عنقك.

قال مايهيو: لا تنسَ ذلك ما بقيت حياً.

فقال ليونارد: نعم، ولكني ما زلت أتساءل: لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟ لا أستطيع أن أجد سبباً. لقد كانت تخلص لي كل الإخلاص وأستطيع أن أقسم أنها كانت تحبني، ومع ذلك كانت في نفس الوقت تقابل ذلك الرجل.

وهز رأسه أسفاً ومضى يقول: الواقع أن ذلك أمر لا يصدقه عقل، هناك شيء لا أفهمه ولا أستطيع أن أسبر غوره؟

وجاء الحارس الذي كان يلازم ليونارد طوال المحاكمة

وقال له: أرجوك الانتظار بضع دقائق حتى نستطيع تهريبك من الباب الجانبي إلى إحدى السيارات.

فسأله ليونارد: ألا يزال هناك جمهور غفير؟

- نعم.

ودخلت رومين يرافقها أحد رجال الشرطة، وكان الشرطي يقول لها: من الخير أن تنتظري هنا قليلاً يا سيدتي، فإن الجمهور في حالة نفسية سيئة وأخشى إذا خرجت الآن أن يعتدي عليك بعضهم. صبراً بضع دقائق حتى يتفرق الجمهور.

فأجابته المرأة: شكراً لك.

ولمحت ليونارد فقصدت إليه، ولكن السير ويلفريد اعترض طريقها وقال لها في حزم: كلا يا سيدتي، دعيه وشأنه.

فتلاعبت على شفتيها ابتسامة مرحة وقالت: أتحميه مني؟ إنني لا أرى ما يستوجب ذلك.

فأجابها: كفاك ما ألحقت به من أذى.

- ألا أستطيع أن أهنئه بالبراءة؟

- كلا، شكراً.

- وبالثروة؟

فردد ليونارد في ارتياب: الثروة؟

قال مايهيو: نعم يا سيد فول. أظن أنك سترث ثروة كبيرة طبقاً لوصية المجني عليها.

فقال ليونارد في سذاجة: يخيل إليّ أن الثروة لم تعد تعني شيئاً كثيراً بعد الذي قاسيته.

ثم التفت إلى رومين وقال: الواقع يا رومين أنني لا أستطيع أن أفهم...

قالت رومين بصوت رقيق: يمكنني أن أوضح كل شيء.

فصاح السير ويلفريد: كلا، لا ضرورة للإيضاح، بل لا ضرورة للحديث على الإطلاق.

والتقت عيناه بعيني رومين. كانت في عيونه نظرة عداء وبغض متبادل، وأخيراً قالت المرأة: حدثني يا سير ويلفريد، ماذا كان القاضي يعني بالعبارات التي وجهها إليّ؟ هل كان يعني أنني سأسجن؟

فأجابها: من المؤكد أنك ستقدمين إلى المحاكمة بتهمة شهادة الزور، ومن المحتمل أن يصدر عليك الحكم بالسجن.

فقال ليونارد ليهوّن الموقف على رومين: أنا واثق أن كل شيء سينتهي بسلام فلا تقلقي يا رومين.

وهنا نظر مايهيو إلى الشاب باستياء وقال يزجره: أما آن لك أن تتصرف بعقل يا ليونارد؟ تعال معي فهناك بعض أمور

يجب أن نناقشها.

كان يريد إبعاده عن المرأة التي كادت أن تورده موارد الهلاك، فتأبط ساعده وابتعد به. وبقي السير ويلفريد ورومين وحدهما. وراح كل منهما ينظر إلى الآخر بحدة كما لو كان يريد أن ينفذ ببصره إلى أعماقه ليعرف خبيئة نفسه.

وأخيراً قال السير ويلفريد: لعله يهمك أن تعلمي أنني فهمت وسبرت غورك في أول لقاء بيننا، وقد حزمت رأيي يومئذٍ على أن أفوّت عليك أغراضك وأهزمك في لعبتك، وأحمد الله على أن وفقني في ذلك وأتاح لي أن أنقذ ليونارد على الرغم منك.

فهتفت وهي تضحك: على الرغم مني؟

- هل تنكرين أنك قد بذلت قصارى جهدك لتدميره والقضاء عليه؟

- حدثني، هل كانوا سيصدقونني لو قلت إنه كان معي ولم يغادر البيت في تلك الليلة؟ تكلم، هل كانوا سيصدقونني؟

فأجابها بشيء من الضيق: ولم لا؟

- لأنهم كانوا سيقولون لأنفسهم: إن هذه المرأة تحب هذا الرجل وهي على استعداد لأن تقول أو تفعل أي شيء لإنقاذه. صحيح أنهم كانوا سيعطفون عليّ، ولكن من المؤكد أنهم ما كانوا ليصدقوني.

فأجابها: لو أنك قلت الحقيقة لصدقوك.

- من يدري؟ على أنني لم أكن أريد عطفهم. كنت أريدهم أن يمقتوني وألاّ يثقوا بي وأن يقتنعوا بأنني كاذبة، حتى إذا افتضح كذبي أيقنوا من براءته.

قالت ذلك ورفعت شعرها عن وجهها بحركة يعرفها السير ويلفريد جيداً، وقالت بصوت أجش يختلف تماماً عن صوتها الطبيعي: والآن، ها أنت قد عرفت القصة كلها، فهلا منحتني قبلة أيها السيد؟

فجمد السير ويلفريد في مكانه وكأنما انقضت عليه صاعقة، ثم هتف وهو لا يصدق عينيه أو أذنيه: يا إلهي!

فقالت رومين في هدوء: هل عرفتني يا سير ويلفريد؟ هل عرفت المرأة التي جاءتك بالرسائل؟ أنا تلك المرأة وأنا التي كتبت الرسائل قبل أن أحضرها إليك وأقبض ثمنها خمسة وعشرين جنيهاً. لستَ أنت إذن من أنقذ ليونارد. أنا التي أنقذته، ومن أجل إنقاذه سأذهب إلى السجن، ولكني أنا وليونارد سنجتمع في النهاية ونعيش سعيدين متحابين.

فقال السير ويلفريد وقد غلبه التأثر: ولكن أيتها العزيزة، ألم يكن بوسعك أن تثقي بي؟ نحن هنا نؤمن بنظامنا القضائي ونعتقد بأن العدالة والقانون لا يخذلان الحق أبداً، وقد كان في مقدورنا أن نخرج ليونارد من ورطته.

فقالت: لم يكن بوسعي أن أقدم على هذه المخاطرة.

ثم استطردت قائلة ببطء: لأنك كنت تظنه بريئاً!

ولم يدرك السير ويلفريد غرضها لأول وهلة فقال: وأنت لم تكوني تظنين، بل كنت تعلمين أنه بريء؟

قالت بهدوء: إنك لا تفهمني، أنا كنت أعلم أنه مذنب!

دُهش وفغر فاه وقد أسقط في يده وقال: ولكن، ألست خائفة؟

- خائفة؟ من ماذا؟

- من الارتباط بقاتل؟

- أنت لا تفهم شيئاً. أنا أحبه وهو يحبني!

صمت السير ويلفريد لحظة ثم قال: عندما التقيت بك لأول مرة قلت إنك امرأة عجيبة، ولست أرى الآن سبباً يحملني على تغيير هذا الرأي.

وتركها وانصرف وهو يشعر كأنه في حلم.

* * *

الفصل الرابع عشر

كانت هناك حركة غير عادية عند باب القاعة، وارتفع صوت أحد الحراس وهو يقول: لا فائدة من الدخول الآن يا آنسة، لقد انتهت القضية.

ولكنه ما كاد يتم عبارته حتى اندفعت إحدى الفتيات من الباب كالسهم، ثم توقفت في وسط القاعة ونظرت بعينين شاردتين. كانت في ريعان شبابها، فهي في نحو العشرين من عمرها، رشيقة ذات وجه فاتن وعينين زرقاوين بريئتين كعيون الأطفال وشعر طويل في لون الفراولة.

وما أن وقع بصرها على ليونارد حتى اندفعت بلهفة شديدة وألقت بنفسها في أحضانه وهي تصيح: ليونارد، أيها الحبيب. لقد أطلقوا سراحك أخيراً، فما أسعدني! تصور، لقد حاولوا منعي من الدخول. لا أحد يعلم كم كنت قلقة عليك، لا أحد يعلم أنني كدت أجن.

ورأت رومين وسمعت كل شيء، وبدا عليها في البداية كأنها تنظر إلى مشهد من مسرحية، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها وقالت بصوت أجش: ليونارد، من هذه الفتاة؟

فنظرت إليها الفتاة في تحدٍّ وقالت: أنا فتاته، وأنا أعرف كل شيء عنك. أنت لست زوجته.

وتمادت في الجرأة والتحدي واقتربت من رومين وهي تقول: إنك أكبر منه سناً، وقد نجحت في البداية في التغرير به والسيطرة عليه وحاولت في النهاية أن تضعي حبل المشنقة حول عنقه، ولكن كل ذلك قد انتهى الآن.

ثم تحولت إلى ليونارد وقالت: سنقوم الآن بالرحلة التي وعدتني بها وسنزور كل البلاد الجميلة التي طالما حدثتني عنها ونقضي معاً وقتاً طيباً، أليس كذلك أيها الحبيب؟

فقالت رومين ببطء وهي تضغط على كل كلمة: هل هذا صحيح يا ليونارد؟ هل هي فتاتك حقاً؟

فتردد ليونارد لحظة، ثم قرر أن يحسم الموقف فقال وهو يقترب من رومين: نعم، إنها فتاتي.

- بعد كل هذا الذي فعلته من أجلك؟ وهل هي في وسعها أن تفعل من أجلك شيئاً يمكن مقارنته بما فعلت؟

فأجاب ليونارد بغلظة وقسوة وقد أسفر عن وجهه وبدا على حقيقته: إنها أوفر منك شباباً وأصغر منك سناً بما يقرب من خمسة عشر عاماً.

وضحك، فتغير لون وجه رومين وتراجعت خطوة إلى الوراء كما لو قد أصابتها لطمة لم تكن تتوقعها. واقترب منها ليونارد وقال مهدداً: إنني أملك ثروة ضخمة وقد قضت

المحكمة ببراءتي، والإنسان في هذه البلاد لا يمكن أن يحاكم مرتين في جريمة واحدة، فخير لك إذن أن تغلقي فمك وتكفّي عن هذه الثرثرة وإلا حوكمتِ وشُنقت بتهمة الاشتراك بالجريمة.

ثم تحول إلى الفتاة وضمها إلى صدره بقوة. أما رومين فإنها تناولت السكين الذي كان على المائدة بين المضبوطات في قضية القتل، ورفعت رأسها بكبرياء وصاحت: كلا، ذلك لن يحدث. لن أحاكَم بتهمة الاشتراك في الجريمة ولن أسجن بتهمة شهادة الزور، ولكني سأحاكم لارتكاب جريمة القتل!

ورفعت يدها بسرعة البرق فأغمدت السكين في ظهر ليونارد، وأكملت عبارتها بقولها: لقد قتلت الرجل الوحيد الذي أحببته.

وسقط ليونارد على الأرض دون أن ينطق بكلمة، وأطلقت الفتاة صرخة مدوية تردد صداها في أرجاء القاعة.

وأسرع مايهيو فجثا بجانبه وتناول يده ليجس نبضه، وما لبث أن هز رأسه وقال ببطء: لقد مات.

وحينئذٍ دارت رومين على عقبيها لتواجه منصة القاضي وصاحت بطريقة مسرحية: أنا مذنبة يا سيدي القاضي!

* * *

(تمت)